المبحث الخامس

عبودية داود وسليمان

- عليهما الصلاة والسلام -

عبودية داود – عليه السلام–

داود وسليمان – عليهما السلام هما من أنبياء الله لبني إسرائيل بعد موسى عليه السلام، جمع الله لهما بين الملك والنبوة، قال سبحانه في بيان تفضيله لهما بذكرهما مع الأنبياء: OŠÜº•Ú) #<) $Zßm÷&r ¾íï‰è/ .`Ï `¿íÎZ9$r 8yqÇ4<) $Zøm÷& $J. 7 øÎ) $Zøm÷& $R) * â: $Y÷?#är `»Kø‹Ïr brãdr §ÇqÆr >q•&r Ú¤ŠÃr Å$6Ñ'F$r >qàè/r ,»sÑÎr ÜŠÈ»JÑÎr .(١)á #Yqç– Š¼ã#Š

فقد امتن الله على داود بإنزال الزبور عليه قال سبحانه أيضاً: 'Î `JÎ Ð=ã& 7š‘r â: ÇÚÖÜ ßÏ9$ Ù è/ $Z‹ÏÒù ß)9r ÇÚ öF$r ÏN°q»Jï 9$ .(٢)á ÇÎÏÈ #Yqç– Š¼ã#Š $Y÷?#är <Ù è/ 4?ã `¿ÍÎY9$ Ù è/ $Z‹ÏÒù ß)9r ÇÚ öF$r ÏN°q»Jï 9$

ومن فضائل داود عليه السلام:

١/ إعطاؤه الملك والنبوة ¼çJ=ãr pJò6 ïø‹r š• ùÚØ‹ª! $ç9?#är šV qà` Ï¼ã#Š Ü‹F%r â rê ©$£Å6 »9r Ùß öF$ÏN‰ ï ÿ©<Ù è7Î OÇÚÒè/ ¨ $Y9$<‹ $ÏÚŠ ÜÚq9r â±„ $ÆÏ .(٣)á šú ïÜ=»è‹$'?ã ÇÚÒù

فالله مَنَّ عليه بتملكه على بني إسرائيل، مع الحكمة وهي النبوة المشتملة على الشرع العظيم والصراط المستقيم(٤).

٢/ مَنّ الله عليه بقتل جالوت ملك الكفار بيده، وهذا يدل على شجاعة داود عليه السلام في الحرب، وقوته وصبره في سائر الأحوال(٥).

---

(١) سورة النساء: ١٦٣.

(٢) سورة الإسراء: ٥٥.

(٣) سورة البقرة: ٢٥١.

(٤) تفسير السعدي: ١٠٨.

(٥) المصدر السابق: ١٠٨.

٣/ إن الله علمه مما يشاء، حيث جمع له من العلوم الشرعية والسياسية فجمع الله له الملـــك والنبوة(١).

٤/ اختصه الله بالحكمة، وفـــصل الخطـــاب [illegible] (٢) والحكمة هي النبوة، والسُّنَّة والفهم، والصواب.

وفصل الخطاب قيل علم القضاء والعدل وقيل بيان الكلام(٣).

ومما يدل على أنه كان يقضي بين الناس قوله سبحانه وتعالى: [illegible] (٤).

تبين من هذا النص أن الله أنعم على عبده ونبيه داود بالعلم النافع الذي به يعرف الحق من الباطل، وبه يعرف الحكم والفصل بين الناس، كما يتبين أيضاً أنه ملازم لعبودية الله تعالى، فكان له أوقات يخلو فيها مع ربه يناديه ويتضرع إليه، فالله اختصه بالقوة في العبادة وشدة الاجتهاد، وفقهاً في الدين كما قال قبل هذه الآيات [illegible]

(١) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٢) سورة ص: ٢٠.

(٣) زاد المسير في علم التفسير ١٢٠٥.

(٤) سورة ص: ٢١ -٢٥.

"$R‰ÏØã" فداود عليه السلام موصوف من قبل ربه بوصف العبودية "ë #ïr& ÿ¾çR̂ ‰¨#Ä $#Œ

لمكانته وشرفه عنده. "ë #ïr& ÿ¾çR̂" أي كان مطيعاً لله كثير الصلاة[١].

كما يتبين من هذا النص أن نبي الله داود عليه السلام كان كثير الاستغفار والإنابة والرجوع إلى الله تعالى، فلما جمع كثيراً من المحاسن والفضائل جعل الله له المكانة العالية في الآخرة، "7U $«B ` ó ãnr 4"x6 $R‰Zĩ ¼ã bÎr 7ï°Œ ¼çs9 $Rö yóù" .

قال ابن كثير: – رحمه الله – "وقد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق وما تضمن فهو حق أيضاً[٢].

وأثر أن علياً – رضي الله عنه – قال: (من حدثكم بحديث داوود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة وهي حد الفرية على الأنبياء)[٣].

٥/ أعطاه الله الزبور وهو أحد الكتب السماوية قال الله تعالى: â ä r# $Y•?#ã Š¼ã#Š –çq¯ Y# á[٤]

فقد اختصه الله بالصوت الطيب والترجيع والألحان قال تعالى: â $R̂ ™ ç¥ö $R$$Ø7# A$B èç¼

ç ̂ ós ` Ïŝè Ä6 $Mÿ ŽÉ# Ç̈È ÄŒ9$# ÏöŽ cz ßq ãx@s ÿ¾ã&!ï# Ó È̂ Ç̈È á[٥].

يقول تعالى "$R̂ ™ ç¥ö $R$$Ø7# A$B èç¼ ç ̂ ós `" أي إنا سخرنا الجبال يسبحن مع داود بالعشي؛ وذلك من وقت العصر إلى الليل والإشراق: وذلك بالغداة وقت الضحى،

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٠/٥٦١) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/٤١) بتصرف يسير.

(٣) ذكره ابن عادل في تفسيره اللباب عن ابن المسيب عن علي (١٣/٣٥٧)، وهكذا ذكره الثعلبي في تفسيره (١١/٣٧١)، عن الحارث الأعور عن علي، الكشف والبيان ط دار صادر، وعن الثعلبي نقله القرطبي في تفسيره (١٥/١٨١)، ونقله الخازن في تفسيره (٥/٢٨٧)، فقال روى سعيد بن المسيب والحراث الأعور عن علي فذكره، وهكذا ذكره الفخر الرازي في تفسيره (١٢/١٧٩) عن سعيد بن المسيب وذكره النيسابوري في تفسيره (٦/٢٧٤) فقال روى سعيد بن المسيب والحارث الأعور فذكره.

(٤) سورة النساء: ١٦٣.

(٥) سورة ص: ١٨ – ١٩.

فكان عليه السلام إذا سبح أجابته الجبال، واجتمعت إليه الطير فسبحت معه واجتماعها إليه كان حشرها[١].

فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله r قال له: (يا أبا موسى. لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود[٢]) وروى أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع رسول الله r صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال: (لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داوود)[٣].

فكان عليه السلام كثير التسبيح والذكر لله تبارك وتعالى.

٦/ ومن عبودية نبي الله داود لربه كان كثير الصلاة، كثير الصيام، فهو هنا جمع بين عبودية ظاهرة، وعبودية باطنة، وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله r: (أحب الصيام إلى الله صيام داود كان يصوم يوما ويفطر يوما، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه)[٤].

٧/ وقد كان حريصا كل الحرص أن لا يأكل إلا من عمل يده، كما جاء في الحديث قال رسول الله r: (ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)[٥].

٨/ من منن الله عليه أن وهبه القوة الجسمية والعضلية حتى يسرت له إلانة الحديد[٦]، قال سبحانه: ‰ƒŸ‰tø$#ç9 $Y9&r ŽöÖ9$# ¼çèB 'Îí& Æ$7É»ƒ WÒù $ZÏ Š¼ã#Š $Y•?#ä ö)9r * â: .[٧]á ÇÈ Ž•Æ / bqèJè? $JÎ 'ô $sî» ¹ {qèJã$ Šžè9$'Î öö%r ¡M»óÎ™ @Hå$È& ÇÈ

(١) تفسير ابن جرير (٥٦٢/١٠) .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٠٤٨)، ومسلم (١٩٢/٢) برقم (١٨٠١) .

(٣) أخرجه البخاري برقم (٥٠٤٨)، ومسلم (١٩٢/٢) برقم (١٨٠١) .

(٤) أخرجه البخاري (٦٣/٢) برقم (١١٣١) و (١٩٥/٤) برقم (٣٤٢٠)، وأخرجه مسلم برقم (٢٧٠٩) .

(٥) أخرجه البخاري من حديث المقدام بن معد يكرب، ذكره ابن الأثير في جامع الأصول (٨١٣٥/١٠) .

(٦) دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني ٣١٢ .

(٧) سورة سبأ: ١٠ - ١١.

وقال في موضع آخر: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾[1].

أي أن الله سبحانه أعانه على عمل الدروع من الحديد؛ لصيانة المقاتلين المؤمنين، فكان أول من صنع الدروع التي تسمى الزرد وقد أرشده الله إلى الطريقة المثلى في صناعتها فجعلها حِلقا بعد أن كانت صفائح ليسهل استعمالها، وأمره _عز وجل_ أن يعملها سابغات تغطي كل جسم لابسها ويجرها على الأرض، وتصلح للأجسام المختلفة طولاً وعرضاً فيعم نفعها جميع المقاتلين، وأن يقدر في السرد أي في نسج الدرع وهو إدخال الحلقات بعضها في بعض ولا تجعل المسامير غلاظا فتكسر الحلقة، ولا دقاقاً فتتقلقل فيها ولا تزاد في متانتها فتثقل على المقاتل، وهذه نعمة جزيلة لفت الله المؤمنين إلى وجوب شكره عليها[2] حيث يقول: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ﴾[3].

٩/ ومن تمام تكريم الله له أن الله جعله خليفة للناس، وأمره بإقامة الحكم بين الخلق بالعدل وعدم اتباع الهوى، قال الله تعالى: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾[4] قال أبو حيان: "وجعلهُ تعالى داود خليفة في الأرض يدل على مكانته عليه السلام واصطفائه له ويدفع في صدر من نسب إليه شيئا مما لا يليق بمنصب النبوة[5].

كما أن مقياس الحكم العادل إدراك الحق – كما فعل داوود عليه السلام– وألا يجعل القاضي الحاكم للهوى سلطانا في الحكم، فإن كان الهوى كان الشطط في الحكم ومظنة

---

(١) سورة الأنبياء: ٨٠.

(٢) قصص الأنبياء القصص الحق عبد القادر شيبة الحمد ٢٩١، انظر تفسير ابن كثير (٣/٢٥٠) التحرير والتنوير (٧/١٢٠- ١٢٢) .

(٣) سورة الأنبياء: ٨٠.

(٤) سورة ص: ٢٦.

(٥) تفسير البحر المحيط (٧/٣٧٨) .

الوقوع في الظلم، وإن كان الحاكم لابد أن يكون مدركا للحق فلابد من عنصر العلم وإبعاد الهوى[1].

قلت: وهذا هو المنهج الذي سار عليه داود عليه السلام.

كما كان نبينا محمد r يأتسي به في صبره وشجاعته وعبادته وسائر أحوالـــه ولا أدل على هذا من قوله: á ë ÷ï& ¥ÿçR] Ÿ‰÷Ff $#Œ Š¼ã#Š $R‰ãa ëäöß bqäuà/ $B 4?ã ž£Ð $â .

كما كان عليه الصلاة والسلام يأتسي به في سجود التلاوة، وكان يدعوا بالدعاء الذي كان يقوله داود عليه السلام .

(١) المعجزة الكبرى ٢١١ لمحمد أبو زهرة ط دار الفكر العربي سنة ١٩٧٠م، دار غريب للطباعة.

عبودية سليمان – عليه السلام–

١/ إن من تمام نعم الله على نبيه داود عليه السلام أن وهبه ولداً صالحاً قال سبحانه: á ÇÌÈ ë÷ #ï& ¥ýçR) ‰ö7è‰Nëï `»JøR Š¼ã#‰ï $Z=drr â[١].

قال ابن عاشور _ رحمه الله _ :

وجملة " نعم العبد " في موضع الحال من "سليمان" وهي ثناء عليه ومدح له، من جملة من استحقوا عنوان العبد، وهو العنوان المقصود منه التقريب بالقرينة كما تقدم في قوله تعالى: â ¥ïÏ) $Š$7ãŠ ‹ø‹<ï ûüÅ=øÏ3‰ 7 íˆ9ïéÇÍÈ ûüÅ=øÏ3‰ ×øíˆ ‰qèB á ÇÍÈ في سورة الصافات[٢] فهو سبحانه أثنى عليه بكثرة الطاعة والعبادة والإنابة[٣].

وقوله "إنه أواب" المراد منه أي الأواب إلى أمره ونهيه[٤] فهو محقق لعبودية الله في تكاليفه الشرعية.

فأعظم ما يحصل به العز والرفعة في الدنيا من قبل الآباء هو صلاح الأبناء؛ ولذلك كان من دعاء عباد الرحمن[٥].

â ¥ïÏ) BBÈ ÇÍÍÈ á[٦].

٢/ كما امتن الله على داود وسليمان عليهما السلام بإيتاء العلم لقوله: â ¥ïÏ) 9r ãŠ $Y?#ä ‰ãŠ¼ â[٧].

---

(١) سورة ص: ٣٠.

(٢) التحرير والتنوير (٢٥٣/٩) .

(٣) المصدر السابق :(٢٥٤/٩) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤٤/٤) .

(٥) انظر: صفات عباد الرحمن كما تصورها سورة الفرقان لرفعة الغامدي، ٣٠٦ رسالة ماجستير ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م كلية التربية بمكة المكرمة.

(٦) سورة الفرقان: ٧٤.

(٧) سورة النمل: ١٥.

وفي فعل "آتينا" ما يؤذن بأنه علم مفاض من عند الله؛ لأن الإيتاء أخص من "علمناه" فلذلك استغني هنا عن كلمة "من لدنا"[١].

والمقصود بهذا "العلم" هو علم كلام الطير والدواب وغير ذلك، مما خصهما الله بعلمه[٢] كعلم النبوة والشريعة والحكمة[٣].

[٤]فهما هنا يحمدان الله على أن فضلهما وآثرهما على بقية كثيرة من عباده المؤمنين في دهرهما الذي يعيشان فيه[٥]. لقوله سبحانه: [٦].

قال ابن القيم: – رحمه الله – "العلم هاد والحال الصحيح مهتد به، والعلم تركة الأنبياء وتراثهم، وأهله عصبته ووراثهم وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال، والأحوال، وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغي والرشاد والهدى والضلال، به يعرف الله ويُعبد ويُذكر ويُوحد ويحمد ويمجّد، وبه اهتدى إليه السالكون ومن طريقه وصل إليه الواصلون ومن بابه دخل عليه القاصدون، به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه توصل الأرحام، وبه تعرف مراضي الحبيب وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب، وهو إمام والعمل مأموم، وهو قائد والعمل تابع، وهو الصاحب في الشبهة، والغني الذي لا فقر على من ظفر بكتره، والكنف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربه وبذله صدقه، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام[٧].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣٤/٨) .

(٢) تفسير ابن جرير (٥٠٢/٩) .

(٣) القصص القرآني، عماد زهير حافظ ٣٠٣.

(٤) سورة النمل: ١٥.

(٥) انظر: تفسير ابن جرير (٥٠٢/٩) .

(٦) سورة المجادلة: ١١.

(٧) مدارج السالكين (٤٦٩/٢، ٤٧١) .

ولذا يقول سبحانه: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾[1].

كما جاء في الحديث أن وراثة الأنبياء لا تكون في الأموال والدراهم إنما تكـــون في العلم، لقوله عليه الصلاة والسلام (وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)[2].

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ يقول ذلك – عليه السلام – تشهيراً لنعمة الله عليهما وتنويها بها، واعترافاً بمكانها ودعاء الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير[3].

وفي قوله ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ إيجاز؛ لأنه إذا علّم منطق الطير وهو أبعد الحيوان عن الركون إلى الإنسان وأسرعها نفوراً منه علم أن منطق ما هو أكثر اختلاطا بالإنسان حاصل له بالأحرى، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾ فتدل هذه الآية على أنه علم منطق كل صنف من أصناف الحيوان[4].

وتخصيص الطير عن سائر الحيوانات بالذكر، لأنه كان جنداً مـــن جنـــد ســـليمان – عليه السلام - يحتاجه في التظليل من الشمس والبعث وغير ذلك من الأمور التي تخـــص بالذكر؛ لكثرة مداخلته؛ ولأن سائر الحيوانات نادر وغير متردد ترداد الطير[5].

كما كان سليمان – عليه السلام – على مكانة عظيمة في الفهم والمعرفة قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

---

(١) سورة النمل: ١٦.

(٢) ذكره ابن حجر في شرح الباري (١٩٦/٥) وأبو داود برقم (٣٦٤١)، والترمذي برقم (٢٦٨٣)، وابـــن ماجـــة برقم (٢٢٣)، والدارمي برقم (٣٤٢)، من حديث أبي الدرداء .

(٣) الكشاف ٧٧٧ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير (٢٣٧/٨) .

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦٧/٧) .

©«ïŴ‰ûg ÇÈÈ šú ïŸ‰ûgÿù ðŸgÿù $g»Ÿ?ðŸgÿù Jøø¹ $g»Ÿ?ðŸgÿù `» r 2à x#ä?Ÿ $Ÿ?ðãm $Ÿ?ðãr $Ÿ?ðãt á[1] حاصل القصة أن داود - عليه السلام – جاءه خصمان، وكان سليمان عليه السلام شاهد القضية، أحدهما صاحب حرث لجماعة في زرع رعت فيه غنم القوم الآخرين ليلاً فأكلت ما في أشجاره والثاني راعي غنم لجماعة، فقضى داود عليه السلام أن تعطى الغنم لصاحب الحرث؛ نظراً لتفريط أصحاب الغنم، وحكم سليمان فيهما بحكم موافق للرأي السديد وقد رضيه الخصمان بأن يقوم أصحاب الغنم بإعطائها إلى صاحب الحرث فينتفع بأصوافها وألبانها ونسلها في تلك المدة، ويقومون على بستان صاحب الحرث حتى يعود إلى حاله الأولى فإذا عاد إلى حاله ترادّا ورجع كل منهما بماله[2].

وقوله: " Jøø¹ $g»Ÿ?ðŸgÿù `» " يدل على أن الله ألهمه وجهاً آخر في القضاء وهو أرجح؛ وذلك لما تقتضيه صيغة التفهيم، فدل على أن فهم سليمان في القصة أعمق وبالتالي فإن حكم داوود عليه السلام ليس بخطأ؛ لأنه _عليه السلام_ استند في قضائه إلى غرم الأضرار على المتسببين في إهمال الغنم، وأصل الغرم أن يكون تعريضاً ناجزاً فكان ذلك القضاء حقا، أما حكم سليمان وهو الأرجح؛ لأنه مستند إلى إعطاء الحق لذويه مع الرفق بالمحقوقين باستيفاء ما لهم إلى حين، كما أن فيه شبهاً من الصلح أيضاً[3].

وقوله " $Ÿ?ðãt $Ÿ?ðãr $Ÿ?ðãm $Ÿ?ðä?#x à2 r" فيه دفع لما يوهمه تخصيص سليمان – عليه السلام - بالتفهيم من عدم كون حكم داود حكما شرعيا صحيحا أي كل واحد منهما آتاه الله حكما وعلما كثيراً، لا سليمان – عليه السلام - وحده فلا انتقاص لمقام داود عليه السلام[4].

---

(١) سورة الأنبياء: ٧٨ – ٧٩.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٩/٤٩ - ٥٢) التحرير والتنوير(٧/١١٦) تفسير السعدي ٥٢٨، تفسير أبي السعود (٤/٣٤٩ - ٣٥٠) .

(٣) التحرير والتنوير (٧/١١٨) جزء ١٧.

(٤) تفسير أبي السعود (٤/٣٥٠) .

هذه بعض الأمور التي اشترك فيها سليمان مع والده داود عليهما السلام فمع مـــا ورثه من أبيه من الملك والنبوة والحكمة والعلم، فقد وردت خواص وسمات لسليمان انفرد بها عليه السلام منها:

١/ أعطاه الله تبارك وتعالى الفهم الواضح لكلام النمل، قال تعالى: Šîr 4?ã ¥?ã ÓÉ¥ÈÎ ÉÚL m â

¼çßqÃã_r ß»JßÐ¶ ÑàZJÜÐr ÿw Ñà6 ZÂ» ¡ B ¥qèÃ Š$$Ð@ð Y9$$g•'»ƒ ¾¥ðR ÑM9$% ¢@ð Y9$

š• FJèÏ •ãO& Þ& ÓÍçãÎ-r& Éæ ‘ A$%r $gÏçq% `Ï %ZÏm$Ê O¡ 6Gù ÇÌÑÈ brèÃâ„ ÿw ÔèÐr

.[١]á ž” $Î°r 4?ãr ¥?ã MðèR& ÓÉ¥$

توجه سليمان عليه السلام لله تبارك وتعالى بالشكر والإنابة والتضرع والدعاء وهـــذه كلها تدل على عبودية سليمان عليه السلام لربه.

٢/ كان عليه السلام قد أعطاه الله سلطاناً على الريح فهي تجري بأمره إلى حيـــث يريـــد .[٢]á ÇÌÏÈ >$ ¹ & ß¸ øm ä¼{ â¾íÌÞØ'Î “ ÞgB xƒÞ¹$Sç9 $RÖ¤ ¡ ù â

٣/ ومن عبودية سليمان لربه تعالى صبره وثباته عند الفتن والمحن قال سبحانه: $ZFù ß)9r â

ÿw ¼ZtÃ ’íé÷dr ’íÖÿø$Éæ ‘ A$% ÇÌÍÈ >$R& Ñ$ê#% ¡ _ ¾íÞÅÖä 4?ã $Zß)9r `»JøÐ¶

ä¼{ â¾íÌÞØ'Î “ ÞgB xƒÞ¹$Sç9 $RÖ¤ ¡ ù ÇÌÎÈ Ü$dqø$MR& 7Ñ ü‰è/ .Ï ‰nL{ ÓÉ7^ƒ

ÇÌÑÈ Š$ÿõ÷F{$’Î ûüÏ$)ä ûïÞz#ár ÇÌÐÈ <É #§îr ä8Z/ @ä ûüÜ»‹±9$ ÇÌÏÈ >$ ¹ & ß¸ øm

ÇÍÈ 5>$«B `óãr 4"ø9 $R‰Zä ¼ç9 bÎr ÇÌÑÈ 5>$ ¡ Ïm Îöóî õ7 Åø& ÷& ôø$u $Rä$Üã #‹»d

.[٣]á

وتفسير هذه الفتنة كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة – رضي الله عنـــه – قـــال رسول الله r: قال سليمان بن داود: (لأطوفن الليلة بمائة امرأة تلد كل امـــرأة منـــهن

---

(١) سورة النمل: ١٨ – ١٩.

(٢) سورة ص: ٣٦.

(٣) سورة ص: ٣٤، ٤٠.

غلاماً يقاتل في سبيل الله قال: ونسي أن يقول: إن شاء الله فأطاف بهن قال: فلم تلد منهن امرأة إلا واحدة نصف إنسان "فقال رسول الله r : "لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركا لحاجته)[1].

فلما ابتلي سليمان – عليه السلام - دعا الله وابتهل إليه بأن يغفر له وأن يهب له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وفعلاً حقق الله له ما تمناه، وما ذاك إلا بتحقيقه عبودية ربه تبارك وتعالى، مع كثرة التضرع واللجوء إلى الله كيف وقد قال عنه البـاري: â Nèï

á ë÷#ï& ÿçR) ßõÈø[2].

٣/ أن الله تعالى سخر له الشياطين والجن الذين يقومون على خدمة سليمان -عليه السلام- فمنهم البنَّاء للقصور والحصون، ومنهم الغواص في البحر لاستخراج اللآلئ والأحجار الكريمة، كما جعل الله لسليمان – عليه السلام - سلطاناً على الشياطين الكفرة فكان يقيدهم لكف شرهم، هذا الملك كله هيأه الله لسليمان - عليه السلام - وأباح له أن يتصرف فيه على الوجه الذي يريده فيعطي منه ما يشاء ويمسك عن العطاء لمن يريد، وله بجانب ذلك منزلة كريمة عند ربه وحسن مرجع في الآخرة وهو الجنة[3].

قال سبحانه تعالى: â A$% ' éöÿø$Éê ' íé÷dr 'íöÿø$Éê ^ƒvx ¾Zßà 'íé÷dr 'íöÿø$Éê ' A$% â :ïè

7Rî üï ï‰è/ .`Bï ‰nL{ ÓèE^ƒvx ¾Zßà 'íé÷dr 'íöÿø$Éê ' A$% â :ïè

ûüÜ»‹÷ø9$# ÇÏÌÈ >$¹&ßJøOm§ {â¾íÌ•ßϑ‹Ï ‘ ìøÎB xƒÍ•yϑø9$#ur ¡ù ÇÍÌÈ Ü=Ïdqè%§MR&

õ7ÅÁøBr& ôÏΒ$yϑø9$#ur ÇÌÌÈ Šö$ÿϑ¯Ρ Ï$¨Ψ9$# ûüÏΖÏΒ÷σßϑø9$#ur ÇÌÈ ÉΑ#§ρâ r&tΡ$Ζ/ @ä

á 5Θ$«B `óÁßnr 4"øÎ9 $R‰ZÏã ¼çν9 ßÎ)r ÇÍÈ 5Θ$¡ïm Îöóî

وقال سبحانه: â JøÝÏ ŽÅÁßnr Ç¢È bqãèqßϑÏm§ ÎötóÏ9$# Ä§ RM}$# ÇÊÉÈ `ÏB ¾ÍnÓqßϑãè `»JøÝÏ

á[4] وقال عز ملكُه â JøÝÏ `»Jø‹ÝÏ ùr $gßϑ#r‘r ÖÏ- $dÍκÅâ xƒÍ•yϑø9$# ûüÏèã ¼çν9 $Zèù™&r ÖÏ-

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤٢٤)(١٩٧/٤)، ومسلم (٨٧/٥).

(٢) سورة ص: ٣٠.

(٣) مع الأنبياء في القرآن، لعفيف طبارة ٢٨٦.

(٤) سورة ص: ٣٥ – ٤٠.

(٥) سورة النمل: ١٧.

ôÏB ɋ¼ÉÇ$RÍ‹ô ã Ñ¿Ï B ø ï ` Br ¾ïî Ê ï ï‰ƒ û ø/ @ J è ƒ ` B Ç Ï Ø ` Ïr ‹ÖÏ¿Ø

9r‰ r É #qgø 5 $ÿÅ r @Ï» J ? r = ƒ‹t ` Ï â ± „ $B ¼ç9 bqè Jè ƒ ÇÏÈ Î•è¡ 9$É # ‹ ã

.[1] á ÇÌÈ âqâ± 9$ " Ï$6ä ôÏ @‹î‰r #[Ø Š¼ã Š A#ä {qè Jã$ Ï» Å#§

٤/ كما أن من النعم التي أنعم الله بها على سليمان عليه السلام تسخير الخيل له قال سبحانه:

‹øÉ ` ã Îø ø$= ã Ï 7 ô‰ þÏ) A$) ù ÇÌÈ Ï$‹ƒø$Ï» Ÿ ÿ» Á 9$Ó Å è Ï ïø ã Ú ‹ã ø) â

.[2] á ÇÌÈ É$ãÑ$r É q¬ 9$Ï $Gó B ,ÿÜù ¥?ã $dršâ ÇÌÈ É $ f ø Ï Ó ‘#q? Ø m ’Î

فسليمان عليه السلام قدّم هنا محبة الله على كل شيء، فعقر الجياد الصافنات أي الخيول المسرعات المحبوبة للنفوس؛ رغبة في محبة الله وتقديمه على ما سواه، فعوضه الله خيراً من ذلك بأن سخر له الريح الرخاء اللينة التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد[3] "غدوها شهر ورواحها شهر" أي جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشي كذلك[4].

قلت: تقديمه عليه السلام محبة الله على محبة الجياد الصافنات من تمام العبودية لله رب العالمين.

٥/ وكما ألان الله سبحانه الحديد لنبيه داود – عليه السلام – فقد أسال عين القطر لسليمان عليه السلام، أي النحاس المذاب أساله من معدنه كالعين الجارية من الماء، دون أن يُشعل عليه ناراً تيسيراً له ومداداً في أسباب قوته[5]. قال سبحانه وتعالى: ¼ç9 $Z Ï™&r â

.[6] á ‹ÖÏ¿Ø ø$Ó û ã

فكانت هذه الخصائص والمِيَز، امتاز بها وانفرد بها نبي الله سليمان - عليه السلام – عن غيره من الأنبياء والملوك.

---

(١) سورة سبأ: ١٢، ١٣.

(٢) سورة ص: ٣١ – ٣٣.

(٣) انظر: تفسير السعدي ٧١٤.

(٤) تفسير أبي السعود (٥/٢٥١) .

(٥) انظر: المصدر السابق نفس الصفحة.

(٦) سبأ: ١٢.

- **دعوة سليمان – عليه السلام – إلى عبودية الله:**

كان لسليمان – عليه السلام – من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها ما لم يكن لأحد قبله ولا يعطيه الله أحداً بعده[١]، وفي العرض العسكري العام لسليمان – عليه السلام - وجنوده وذلك بعد ما أتوا على وادي النمل، وبعد مقالة النملة وتوجه سليمان – عليه السلام – إلى ربه بالشكر والدعاء والإنابة[٢] أخذ يتفقد جنوده واحداً واحداً

ÇËÈ šú üÎÍ‡ó¤ø$$`Ï b‰Ÿ2 P-& ‰èd‰g¤ø$$ “ ‘& tw † Í $B A$)ù žöÖ9$‰ÿ?r â

A$)ù ‰‹ê/ žöî] 3Jù ÇËÈ &üÎB 9»Ùt¥ÝÎ ÓÍ‗ï‰Ù9 r& ÿçŸt2ø¤Ÿ r& #‰ƒ‰© $¥# ‹ ã ¼çŸ/Ée㋅

.[٣]á ÇËÈ ¤üÉƒ *^Î ¥™ `Ï š• ç¤Å r ¾ïÎ ñÝïÊ Ù9 $JÎ ¤MÜm&

فعندما عاد الهدهد أخذ يبين لسليمان – عليه السلام – سبب غيابه، وهو أنه اتجه إلى سبأ ملوك اليمن فبين له أن بلادهم تحكمها امرأة وأنها أوتيت من الثراء وأبهة الملك، وما يلزم من عتاد الحرب وآلات القتال الشيء الكثير الذي لا يوجد مثله إلا في الممالك العظمى[٤] كما أخبر أن لها عرشاً عظيماً أي سريراً تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلئ[٥]، كما نبه الهدهد إلى قضية خطيرة وقعت فيها ملكة سبأ وقومها وهي اتخاذها عبادة الشمس من دون الله

`ƒ–r «‹ $ÈErŠ `Ï Ä§ ðŒ=Ø brŠa‹ ó„ $gBöŠr $g?‰ ` r â

“ Ï‰ŠŠ‹ ‹r‰a‹ ó„ žv& ÇËÍÈ br‰Gôƒ Ÿw Ï‰Gù è<î¡ 9$Çã Ï‰È‰Á ù Ï‰G»Jã& ß»Üœ=9$‰ÄŠG9

•> ‘ qè žvÎ m»9Î w ª! $ÇËÍÈ bqãèè$Br bqãèè$B Ð-ƒr ÇÚ öF{$ Ï‰Nºq»J¡ 9$’Î äó , ‰Ä‹Ï‹a

.[٦]á ÇËÈ ûÎÉ»3‰Ä`Ï MŸä¤& M‰‰ ¹ & ‰ÄZŸ™ A$% * ÇËÈ) É‹èè‰Ä¸ èè‰Ä$

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ٣٤٩.

(٢) حوار الأنبياء مع أقوامهم في القرآن، ٥٣٩.

(٣) سورة النمل: ٢٠، ٢٢.

(٤) حوار الأنبياء مع أقوامهم في القرآن، ٥٤٠.

(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٧٦).

(٦) سورة النمل: ٢٤، ٢٧.

لم يظهر سليمان عليه السلام تصديق ولا تكذيب الهدهد، بل أمره بخطة تقطع على سليمان — عليه السلام - الظنون فقال سبحانه: "سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ"[1].

أرادت ملكة سبأ هنا أن تتحقق من صحة مراد سليمان عليه السلام.

وفي قول سليمان "فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم" إنكار لإمدادهم إياه عليه الصلاة والسلام بالمال مع علو شأنه وسعة سلطانه، وتوبيخ لهم بذلك وتنكير "مالٍ" للتحقير وقوله تعالى: "بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ" أي ما رأيتم آثاره من النبوة والملك الذي لا غاية وراءه "مَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ" أي

---

(١) سورة النمل: ٢٨ — ٣٥ .

(٢) سورة النمل: ٣٦ — ٤٠.

من المال الذي من جملته ما جئتم به فلا حاجة لي إلى هديتكم وأخذ يهددهم إن لم يسلموا[1] á brëë¹ ïèr \Œ& $kÞB Nq]_ì÷¸ z0r $kí Mç; @6% žv 3qæ2 NG•ïZ=ù â[2].

وقد عقد سليمان – عليه السلام – مسابقة بين نخبة القوم وهم أشـــرافهم "$kS7 "šú üÜîóã 'Îqè/ b& @6% $kÅèî Óí‹ïÜ ïa/& (à=J

وما الذي قصد سليمان عليه السلام من إحضار عرشها قبل مجيئها مسلمة مع قومها ؟ هناك أقوال:

الأول: ليعلم صدق الهدهد، قاله ابن عباس – رضي الله عنهما – .

الثاني: ليجعل ذلك دليلاً على نبوته؛ لأنها خلَّفته في دارها واحتاطت عليـــه فوجدتـــه قـــد تقدمها، قاله وهب بن منبه[3] .

الثالث: ليختبر عقلها وفطنتها أتعرفه أم تنكره، قاله سعيد بن جبير[4]- رضي الله عنهما -

والرابع: ليريها قدرة الله تعالى، وعِظَم سلطانه حكاه الثعلبي[5]رحمه الله.

---

(١) تفسير أبي السعود (٨٤/٥) .

(٢) سورة النمل: ٣٧.

(٣) وهب بن منبه بن كامل أبو عبد الله اليماني الصنعاني الذماري من أبناء فارس في اليمن، وكان حبراً مـــن أحبـــار اليمن عالماً بالكتب فأسلم وحسن إسلامه وكان يتزل صنعاء، وولي القضاء فيها، وتوفي بصنعاء سنة أربع عشرة ومائة وكان من الثقات الأثبات والوعاض والمذكرين المؤثرين . ترجمته في التاريخ الصغير للبخاري (٢٥٢/١ – ٢٧٤) تحقيق محمد إبراهيم زيد ط دار الوعي بحلب، ودار التراث بالقاهرة ط ١٣٩٧هـــ . التقريب (٥٨٥) .

(٤) سعيد بن جبير الأسدي الفقيه المحدث المفسر أحد أعلام التابعين وعلمائهم، ومن أبرز تلاميذ عبد الله بن عبـــاس رضي الله عنهما، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما، جمع إلى علم بن عباس في التفسير علم الفقه بالمناسك عـــن عطاء، وعلم الحلال والحرام عن طاووس، وعلم الطلاق عن ابن المسيب، وتوفي سنة خمس وتسعين، قتله الحجاج ظلماً، فدعا عليه فلم يقتل بعده أحداً، بل مات الحجاج بعده بأيام . ترجمته في طبقات ابـــن ســـعد (٢٥٦/٦) ووفيات الأعيان (٣٧١/٢)، وسير أعلام النبلاء (٣٢١/٤) .

(٥) زاد المسير في علم التفسير ١٠٤٧. والثعلبي هو الإمام: أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق النيسابوري الثعلبي صاحب التفسير المشهور، والعرائس في قصص الأنبياء، كان أوحد زمانه في علم القرآن، بارعاً في العربية، حافظاً موثقاً، بيد أن كتابه شانه بالإسرائيليات، وحشاه بالمنكرات والواهيات، والله يغفر لنا وله، وفاته سنة سبع وعشرين وأربعمائة. وفيات الأعيان (٧٩/١) والطبقات الكبرى لابن السبكي (٥٨/٤) وطبقات المفسرين للسيوطي (٧).

ورجح ابن جرير الطبري – رحمه الله – القول الثاني والرابع حيث قال: "وأولى الأقوال بالصواب في السبب الذي من أجله خصّ سليمان - عليه السلام - بسؤاله الملأ من جنده بإحضار عرش هذه المرأة دون سائر ملكها عندنا؛ ليجعل ذلك حجة عليها في نبوته ويعرّفها بذلك قدرة الله وعظيم شأنه، أنها خلّفته في بيت في جوف أبيات بعضها في جوف بعض مغلق مقفل عليها، فأخرجه الله من ذلك كله بغير فتح أغلاق وأقفال، حتى أوصله إلى وليه من خلقه وسلمه إليه فكان لها في ذلك أعظم حجة على حقيقة ما دعاها إليه سليمان عليه السلام وعلى صدق سليمان - عليه السلام - فيما أعلمها من نبوته"[(١)] Mfÿøÿ A$% â

" ï%@A% ÇìÈ ê¤üÈ& ;" è) 9 ïøãã 'õr 7È$) B `È Pqà? b& @6% ¾ïî 7 <ï#ä $È& ÇÉ ø$`È

á 7èëÛ 7øî ‰?ëf b& @6% ¾ïî 7 <ï#ä $È& É »GÅø$`È Òäe ¼ç‰ZÈã قال رجل وهو آصف بن برخيا' عنده علم من الكتاب فيه اسم الله الأكبر الذي إذا دعي به أجاب "¾ïî 7 <ï#ä $È&

%@6 b& ‰?ëf 7 øî Û 7 èëÛ 7" فدعا بالاسم وهو عنده قائم فاحتمل العرش احتمالاً حتى وُضع بين يدي سليمان – عليه السلام - والله صنع ذلك وقيل إنه عِلْم كتاب سليمان – عليه السلام - إلى بلقيس ملكة سبأ وقيل إنه عِلم ما كتب الله لبني آدم وهذا على أن الذي عنده علم من الكتاب ملك لا بشر[(٢)].

قال ابن كثير – رحمه الله - "ومن هاهنا يظهر أن سليمان – عليه السلام - أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله من الملك، وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحد بعده؛ وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه هذا وقد حجبته بالإغلاق والإقفال والحفظة[(٣)].

---

(١) تفسير ابن جرير (٩/٥٢١٠) .

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٩/٥٢٢، ٥٢٣ - ٥٢٤) تفسير السعدي ٦٠٥ تفسير ابن كثير (٣/٤٨٠) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٨٠) .

وقوله: " 7 øÎ‰?ëf b‰ 7 èëÛ " فيه أقوال:

أحدها: قبل أن يأتيك أقصى ما تنظر إليه، قاله سعيد بن جبير - رضي الله عنه- .

الثاني: قبل أن ينتهي طرفك إذا مددته إلى مداه، قاله وهب – رحمه الله -

والثالث: قبل أن يرتد طرفك حسيراً إذا أدمت النظر، قاله مجاهد[١] – رحمه الله - .

والرابع: بمقدار ما تفتح عينيك ثم تطرف، قاله الزجاج[٢] – رحمه الله -

قال مجاهد – رحمه الله -: دعا فقال: يا ذا الجلال والإكرام وقال ابن السائب: إنما قال: يا حيُ يا قيوم[٣].

وعندما رأى سليمان عليه السلام عرش الملكة أمامه أمر بتغيير معالم وملامح عرش الملكة لينظر â ü‰Gõ& ûïÍ‰ÍS`Bé&qã?Q& ü‰Gõ& â[٤]á br‰Gõ& ûïÍ‰ÍS`Bé&qã?Q& ü‰Gõ& â[٤].

فلما جاءت الملكة سُئلت " Å3»d& ÏŠ$# ÆÏèø9 " أي عرض عليها عرشها وقد غير ونكر وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل ولها لب ودهاء وحزم فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته وإن غير وبدل ونكر فقالت:" .)ÏR$¡¡9$# qè= " أي يشبهه ويقاربه وهذا غاية في الذكاء والحزم[٥]، بل وفيه مراعاة

---

(١) هو مجاهد بن جبر أبا الحجاج مولى السائب المخزومي، الإمام العلم المكي، كان من حلبة التابعين قرأ على ابن عباس واخذ عنه العلم ولازمه، كما لازم بن عمر – رضي الله عنهم – مدة كبيرة واخذ عنه علماً كثيراً، قال تلميذه قتادة بن دعامة: اعلم من بقي بالتفسير مجاهد، توفي سنة ثلاث ومائة . ترجمته: سير أعلام النبلاء (٤٤٩/٤)، وتهذيب التهذيب (٣٨/١٠) وطبقات المفسرين للداودي (٣٠٥/٢) ،

(٢) هو إبراهيم بن السِّري بن سهل أبو إسحاق الزجاج الإمام السّني العلم، كان من أهل الفضل والدين جميل المذهب، صحيح الاعتقاد على مذهب أهل السنة والجماعة، له تصانيف كثيرة ومفيدة ونافعة منها معاني القرآن في التفسير، وكانت وفاته سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، سمع وهو يدعو ربه بأن يحشره على مذهب أحمد بن حنبل رحمهم الله . ترجمته في: تاريخ بغداد (٨٩/٦) وفيات الأعيان (٤٩/١) ومرآة الجنان لليافعي (٣٦٢/٢) وسير أعلام النبلاء (٣٦٠/١٤) .

(٣) زاد المسير ١٠٤٨.

(٤) سورة النمل: ٤١.

(٥) تفسير ابن كثير (٤٨١/٣) .

لحسن الأدب في محاورة سليمان عليه السلام[١].

قال سليمان عليه السلام: á ûüÏÍóÞ$Zär $gî‰ `Ï Oš‹Ø$$Z•ïrér â [٢].

ثم أخبر سبحانه عن بقية القصة فقال: $KXÎ «‹$È=rß `Ï ‰ãè? MR‰. $B $d‰¹ r â

`ã ÑÝ±.r ø‹¯ãqG6Åm qè‘ $Ð=ù y›ÇÇ9$'íãš$$I; ÇÎÈ ûïÏÝ». ÒÓ‰ `Ï ÑR‰.

`»JŠØÏ³ ìB ÑÑ=Ö&r ÓÅÝØR ÑÑ=ß 'ñÒ_U ‘ Ñ9$‰ •ƒí#q‰ `Ï šŠJÐ ÓŽ=À ¼çÑÎA$‰ $gŠ$™

á ÇÍÈ ûüÏ=»è‹ÉÞ ‘ ⊣ [٣].

وعندها دعا سليمان – عليه السلام - ببناء قصر عظيم من قوارير أي من زجاج وأجري تحته الماء فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه، والغرض من هذا - والله أعلم - ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه، وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله وعلمت أنه نبي كريم وملك عظيم وأسلمت لله عز وجل وقالت: "ÓÅÝØR ÑÑ=ß 'ñÒ_U ‘" أي بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله "ûüÏ=»è‹ÉÞ ‘ ⊣ `»JŠØÏ³ ìB ÑÑ=Ö&r" أي متابعة لدين سليمان – عليه السلام - في عبادته لله وحده لا شريك له الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً[٤].

قلت: فبما أن الله أكرم نبيه داود وسليمان عليهما السلام حيث جمع لهما الملك والنبوة، وسخر لكل منهما ما لم يسخره لغيرهما، فقد سخر هذان النبيان نفسيهما لربهما في التزام عتبة العبودية، بكل ما تعنيها هذه العبارة من خضوع ومحبة، وانقياد، واستسلام لله رب العالمين، و لم يحصل لهما هذه الرفعة في الدنيا والآخرة إلا بتحقيقهما لمعنى العبودية.

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/٨٧) .

(٢) سورة النمل: ٤٢.

(٣) سورة النمل: ٤٣ – ٤٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٨٣ – ٤٨٤) .

المبحث السادس

عبودية إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف - عليهم الصلاة والسلام -

عبودية إسماعيل -عليه السلام-

عندما دعا إبراهيم – عليه السلام - قومه إلى عبودية الله تعالى وبذل ما في وسعه لنصحهم وإرشادهم، وبين لهم أن ما هم فيه هو الإفك وهو الضلال المبين واجتمعوا على الكيد له وإحراقه بالنار، اتجه إلى خالقه وبارئه وناصره [illegible] [1] ولا شك أن هذا الغلام هو إسماعيل – عليه السلام – وهو أول ولد بُشر به إبراهيم – عليه السلام - وهو أكبر من إسحاق عليه السلام باتفاق المسلمين وأهل الكتاب.

كما اشتملت هذه البشارة على ذكورية المولود، وبلوغه سن الحلم ووصفه بالحلم أيضاً[2] وهو اسم يجمع أصالة الرأي، ومكارم الأخلاق والرحمة بالمخلوق، قيل: ما نعت الله الأنبياء بأقل مما نعتهم بالحلم[3].

قلت: ما وُصف إسماعيل – عليه السلام - بالحلم إلا لأجل حمل الأمانة الشاقة وهي الدعوة إلى عبودية الله، وهذا يتطلب من الداعية الحلم والصبر والمصابرة في مواجهة خصوم الدعوة.

١/ وقد بعثه الله نبيا إلى العرب يدعوهم إلى الله، ويأمرهم بالصلاة والزكاة، قال تعالى: [illegible] [4].

ولم يبعث الله من نسل إسماعيل – عليه السلام - إلا نبياً واحداً هو أفضل وأشرف وخاتم الأنبياء والمرسلين محمد r .

---

(١) سورة الصافات: ٩٩ – ١٠١.

(٢) القصص القرآني، عماد زهير حافظ ٩٠.

(٣) تفسير التحرير والتنوير (١٤٩/٩) .

(٤) سورة مريم: ٥٤ – ٥٥.

روى مسلم عن واثلة بن الأسقع – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله r (إن الله عز وجل اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم...) [1] .

نعود للآية السابقة لنعرف من هو إسماعيل ؟! هو ذلكم النبي الموصوف بأشياء عظيمة لم تُعهد من غيره، وناهيك أنه وعد بالصبر على الذبح فقال... "ä$© bÎ ÞÎ‰Ê™" $! Ba ` $ Á9 ÊÎû" فوق "وكان رسولاً نبيا" يدل على أن الرسول لا يلزم أن يكون صاحب الشريعة فإن أولاد إبراهيم – عليه السلام – كانوا على شريعته[2].

" ö4."9$ ö4Á9 ¼ã ãÞÎ"

اشتغالا بالأهم وهو أن يبدأ الرجل بعد تكميل نفسه بتكميل من هو أقرب الناس إليه[3] قال تعالى: â ÖÉR& ãö ïÍ•Ï ?7 $ Fï ùú ÍÈ Ç á[4] وقال سبحانه: â ÖÉR& ãö ïÍ•Ï ?7 =ã ãÞÎ á[5] وقال â ¡ ãR& ãö <îã ãÞÎ #Y$R á[6].

فكان يأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبد، فكمل نفسه وكمل غيره وخصوصاً أخص الناس عنده وهم أهله[7]؛ لأنهم قدوة يؤتسى بهم[8].

---

(١) أخرجه مسلم كما في شرح مسلم للإمام النووي (٥٨/٧) وأخرجه الإمام أحمد (١٠٧/٤) .

واثلة بن الأسقع الكناني الليثي الصحابي الجليل، أسلم والنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يتجهز إلى تبوك، وخدم النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين، وكان من أصحاب الصفة، سكن البصرة، ثم الشام وشهد فتح دمشق، وشهد المغازي بدمشق وحمص، ونزل بيت المقدس وكف بصره في أخر حياته وتوفي سنة ثمان وخمسين . ترجمته: أسد الغابة (٧٧/٥) حلية الأولياء (٢١/٢) .

(٢) تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣٤/٢) بتصرف يسير، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، تفسير أبي السعود (٢٤٦/٤) .

(٣) روح المعاني للألوسي (١٤٣/٩) .

(٤) الشعراء: ٢١٤.

(٥) طه: ١٣٢.

(٦) التحريم: ٦.

(٧) تفسير السعدي ٤٩٦.

(٨) روح المعاني للألوسي (١٤٣/٩) .

"وكان عند ربه مرضياً" أعظم نعمة يمتن الله بها على عبده رضاه عنه ولا يحصل هذا إلا بامتثال العبد مراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه فارتضاه وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين، فرضي الله عنه ورضي هو عن ربه[١].

والقول بأن المراد بإسماعيل في الآية أنه إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام هو الحق الذي ذهب إليه الجمهور، وقيل إنه إسماعيل بن حزقيل بعثه الله تعالى إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه فخيره الله تعالى فيما شاء من عذابهم، فاستعفاه ورضي بثوابه سبحانه وفوض أمرهم إليه عز وجل في العفو والعقوبة[٢].

قلت: ونص الآية يدل على مارجحه الجمهور والله أعلم .

- **ترك إسماعيل وأمه في واد غير ذي زرع:**

أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يترك إسماعيل عليه السلام وأمه في مكة. روى البخاري – رضي الله عنه – عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: أول ما اتخذ النساء المِنْطقَ[٣] من قبل أم إسماعيل عليه السلام، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على ساره ثم جاء بها إبراهيم – عليه السلام - وبابنها إسماعيل عليه السلام وهي تُرضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قضى إبراهيم – عليه السلام - منطلقا فتتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: آلله أمرك بهذا قال: نعم قالت: إذن لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم – عليه السلام - حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال:

ÓÉÍhê `Ï åMZ3Ö¾ þÕ)$Z/§â

Ä $Z9$šÆ Ï ž‰ìà @èô_$u o÷Á9$(qÐ<Éäï$Z/' Ç$s Ð2ê7 Ì•/ ‰Ÿä ?ö- " Ë Îöî Š#qÎ

. á ÇÌÐÈ brëãâ„ ÓÐ=è9 Ñ°•JW9$`Ï NÐ¾ãÜ$ Ñ(Ó)ü ëõ

---

(١) انظر: تفسير السعدي ٤٩٦.

(٢) روح المعاني (٩/١٤٢ – ١٤٣) .

(٣) المنطق: هو النطاق، وجمعه مناطق، وهو أن تلبس المرأة ثوبها ثم تشد وسطها بشيء وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال، لئلا تعثر في ذيلها . لسان العرب (١٠/٥٥٣) .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل – عليه السلام - وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقا عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال: يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا ؟ فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً، فعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس – رضي الله عنهما-: قال النبي r : "ذلك سَعْيُ الناس بينهما" فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت: صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضا، فقالت: قد اسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالمَلَكِ عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال: - بجناحه – حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يَفُورُ وبعدها تغرف، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: قال النبي r "يرحم الله أم إسماعيل ! لو تركت زمزم – أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم علينا عينا "قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن ههنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائضاً، فقالوا: إن هذا الطائر يدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جريًّا أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا. قال: وأم إسماعيل عند الماء فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت نعم، ولكن لاحق لكم في الماء عندنا. قالوا: نعم. قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: قال النبي r "فألقى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس" فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بهم أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأَنْفَتَهُمُ أعجبهم حين شَبّ فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم إسماعيل(١).

(١) أخرجه البخاري كما في الفتح (٦/٣٩٦) برقم (٣٣٦٤) .

- **قصة رؤيا ذبحه:**

قال سبحانه: [illegible] .[1]

عند التأمل في هذا النص الكريم نجده لم ينص صراحة بأن الذبيح هو إسماعيل – عليه السلام- لذا حصل الخلاف بين المفسرين في هذه المسألة على قولين:

القول الأول: يرى أن الذبيح هو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

القول الثاني: يرى أن الذبيح هو إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام.

وأدلة القول الأول ما يلي:

١/ أن إسماعيل – عليه السلام – أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد ولإبراهيم – عليه السلام - ست وثمانون سنة وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة تقريباً.

٢/ ثبت عندهم في كتبهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم – عليه السلام - أن يذبح ابنه ووحيده وفي نسخة أخرى بكره، فأقحموا ههنا كذبا وبهتانا إسحاق ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابه وإنما أقحموا إسحاق؛ لأنه أبوهم وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم فزادوا ذلك وحرفوا وحيدك بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل – عليه السلام – كان ذهب به وبأمه إلى مكة وهو تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال وحيدك إلا لمن ليس له غيره[2].

---

(١) الصافات: ١٠٢ - ١٠٩

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٢٣ - ٢٦) .

٣/ كما أن الآيات السابقة الذكر دلت على أنه إسماعيل عليه السلام فإن الله تعالى لما انتهى من ذكر قصة المذبوح قال: "وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين" ففهم وعلم أن الأول غير الثاني "إسحاق" وبذلك يكون هو إسماعيل، فالبشارة بإسماعيل لما كانت عقب دعاء إبراهيم – عليه السلام - أن يهب الله له من الصالحين عطف هنا بفاء التعقيب، وبشارته بإسحاق ذكرت في هذه السورة معطوفا بالواو، وعطف القصة على القصة، فالعطف هنا يدل على المغايرة، إذ أن البشارة الأولى تختلف تماماً عن البشارة الثانية إذ لو كانت الواو الدالة على العطف تقتضي بشارته بإسحاق مثل الواو التي للتعقيب؛ لحصل في كلام الله تكرار وكلام الله مترّه عن هذا(١).

٤/ ويرجح ابن القيم – رحمه الله – هذا القول حيث يقول: "إن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ووهب له تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذه خليلا، والخلة منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها، فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد، جاءت غَيْرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل، فأمر بذبح المحبوب، فلما أقدم على ذبحه، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد، خلُصت الخلة حينئذ من شعائب المشاركة، فلم يبق في الذبح مصلحة، إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه، فقد حصل المقصود، وفُدِيَ الذبيح وصدق الخليل الرؤيا، وحصل مراد الرب تبارك وتعالى، ومعلوم أن هذا الامتحان إنما حصل عند أول مولود، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضي الأمر بذبحه وهذا في غاية الظهور(٢).

٥/ ومن أدلة ابن القيم – رحمه الله – أيضاً "أن سارة امرأة الخليل غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنما كانت جارية فلما ولدت إسماعيل وأحبه أبوه واشتدت غيرة سارة، فأمر الله سبحانه أن يُبعد عنها هاجر وابنها ويسكنها في أرض مكة لتبدد عن سارة حرارة الغيرة وهذا من رحمته ورأفته تعالى، فكيف يأمر سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها

---

(١) التحرير والتنوير (١٤٩/٩ – ١٥٠) .

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط ٧٤/١ - ٧٥ ط (٦)، ٥ مج بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

ويدع ابن الجارية بحاله، بل حكمته البالغة، اقتضت أن يأمره بذبح ولد السرية فحينئذ يرق قلب السيدة عليها وعلى ولدها وتتبدل قسوة الغيرة رحمة، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها[1].

٦/ كما أن هذه الآيات أشارت إلى قصة الذبيح ولم يسمه القرآن هنا لعله لئلا يثير خلافاً بين المسلمين وأهل الكتاب في تعيين الذبيح من وَلَدَيْ إبراهيم – عليه السلام - وكان المقصد تألف أهل الكتاب بإقامة الحجة عليهم في الاعتراف بنبوة محمد r ، وتصديق القرآن، ولو لم يكن ثمة مقصد معهم يتعلق بتعيين الذبيح، ولا في تخطئة أهل الكتاب في تعيينه، وأمارة ذلك أن القرآن سمى إسماعيل عليه السلام – في مواضع غير قصة الذبيح، وسمى إسحاق في مواضع ولم يسم هنا قصداً للإبهام مع عدم فوات المقصود من الفضل لأن المقصود من القصة التنويه بشأن إبراهيم عليه السلام، فأي ولديه كان الذبيح كان في ابتلائه بذبحه وعزمه عليه، وما ظهر في ذلك من المعجزة تنويه عظيم بشأن إبراهيم – عليه الصلاة والسلام[2].

٧/ كما أنه جاء في مدح إسماعيل – عليه السلام - والثناء عليه بصفة الصبر â Jð'Ìr والمراد هنا صبره على أمر الذبح كما وصفه بصدق الوعد[3] في قوله: â :Ìð'Rçm كما وصف بالحلم[4] أما إسحاق فكان وصفه بالعلم دون الحلم â ù'-ŠÈçÌ[5].

وهذا هو الظاهر من القرآن، بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل؛ لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال: "وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين" ومن جعله حالاً فقد تكلف، ومستنده أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات، وكتابهم فيه تحريف ولا سيما ههنا قطعا لا محيد عنه، فإن

---

(١) المرجع السابق (١/٧٥) .

(٢) التحرير والتنوير (٩/١٥٦) .

(٣) قصص الأنبياء: ١٤٨.

(٤) سورة مريم: ٥٤.

(٥) سورة الصافات: ١٠١.

(٦) سورة الذاريات: ٢٨.

عندهم أن الله أمر إبراهيم – عليه السلام - أن يذبح ابنه ووحيده، وفي نسخة من المعربة بكره إسحاق، فلفظة (إسحاق) ههنا مقحمة مكذوبة مفتراه؛ لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر، إنما ذاك إسماعيل وإنما حملهم على هذا حسد العرب، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله r ، وإسحاق والد يعقوب – وهو إسرائيل – الذي ينتسبون إليه فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم، فحرفوا كلام الله وزادوا فيه، هم قوم بهت ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء[١].

أما أدلة القائلين بأنه إسحاق – عليه السلام – وهم طائفة من السلف ومنهم ابن جرير –رحمه الله - في تفسيره، فإنما أخذوه والله أعلم من كعب الأحبار، أو من صحف أهل الكتاب، وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم، حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز، ولا يفهم هذا من القرآن بل المفهوم، بل المنطوق، بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل[٢].

وما أحسن ما استدل به كعب القرظي[٣] – رحمه الله - على أنه إسماعيل وليس بإسحاق عليهما السلام، من قوله á >qàèƒ ,»sÖÏ ät‘r `Ïr ,»sÖÏî $g»Rœ±6ù â[٤] قال: فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له؟ هذا لا يكون؛ لأنه يناقض البشارة المتقدمة والله أعلم[٥].

قال ابن القيم: – رحمه الله – "وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجها،

---

(١) قصص القرآن لابن كثير ١٠٨، ١٠٩.

(٢) المصدر السابق: ١٠٩ .

(٣) كعب بن سليم القرظي ثم الأوسي وبنو قريظة حلفاء الأوس، كان من سبي قريظة الذين استُبقوا لصغرهم . ولا تعرف له رواية، وهو والد محمد بن كعب القرظي، قاله أبو عمر، وقال ابن منده: كعب بن سليم القرظي والد محمد، روى حديثه حاتم بن اسماعيل عن الجعيد بن عبد الرحمن عن موسى بن عبد الرحمن عن محمد بن كعب عن أبيه قال أبو نعيم – وذكر كلام بن منده -: هذا وهم؛ فإن قوله " عن أبيه " ليس هو كعب إنما هو عبد الرحمن الخطمي والد موسى فإن موسى سمع محمد بن كعب يسأل أباه عبدالرحمن يعني أبا موسى، وقد رواه على الصحة في ترجمة عبد الرحمن الخطمي.
ترجمته في أسد الغابة (٤/٢١١) .

(٤) سورة هود: ٧١.

(٥) المصدر السابق: ١٠٩.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب مع أنه باطل بنص كتابهم كما ذكرت سابقاً[1]. قال سبحانه وتعالى: â ÎÍr

É»GÅ8$šÆ Ë qèd $Br É»GÅ6 ø$` Ë qçç¡ ós GÏ É»FÅ8 OGF^Å8 b¼âè/ $Z/ÿ9 OGZË

bqÛ=ê/ Ñèr >É3ø$«‹ $'?ã bqèàÿ/r «‹ $Ï‰Yã ôË qèd $Br «‹ $Ï‰Yã ôË qèd šc qèàÿ/r

.[2]á ÇÐÑÈ

وخلاصة القول في هذه المسألة أن الراجح والله أعلم، والذي تطمئن إليه النفس بالنظر في النصوص أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

- **إبراهيم عليه الصلاة والسلام يعرض الرؤيا على إسماعيل عليه السلام:**

لما نشأ إسماعيل – عليه السلام - وترعرع وأصبح في سن يستطيع معها أن يسعى ويعمل، رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أن الله يأمره بذبح ولده إسماعيل، وكان وحيده آنذاك، عرض إبراهيم – عليه السلام - الأمر على ولده؛ ليمتحن إيمانه وليكون ذلك أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يذبحه قهراً، أجاب إسماعيل عليه السلام: يا أبت افعل ما أمرك الله به وستجدني إن شاء الله من الصابرين الراضين بمشيئة الله.

فلما استسلما لقضاء الله وعزما على تنفيذ أمره ألقى إبراهيم عليه السلام ابنه على وجهه ليذبحه من قفاهُ؛ لئلا يشاهد وجهه حال ذبحه، وأمَرّ السكين على رقبته فلم تقطع، عند ذلك ناداه الله: يا إبراهيم كف عن ذبح ابنك فقد حصل المقصود من اختبارك، وقد وجدنا فيك طاعة ومبادرة إلى تنفيذ أمر ربك، فهذا هو الاختبار العظيم الظاهر البين الذي امتحنا به إيمانك فكنت من الفائزين، فخذ هذا الكبش واذبحه فداء لابنك[3].

من مظاهر العبودية في هذا الموقف ما يلي:

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (١/٧١ – ٧٢) .

(٢) سورة آل عمران: ٧٨.

(٣) مع الأنبياء في القرآن، ١٢٥.

١/ سرعة استجابة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأمر ربه في هذا الموقف العظيم مع أن هذا التكليف جاء عن طريق الرؤيا المناسبة وهذا – والله أعلم بمراده – لزيادة البلاء ولتكون مبادرتهما إلى الامتثال أدل على كمال الانقياد بالإخلاص لله تعالى [١].

٢/ الأسلوب التربوي الرائع من تعامل إبراهيم – عليه السلام – في هذا الموقف الصعب مع ابنه، حيث استخدم عبارة لطيفة فيها معاني الرحمة والعطف â ƒ

.á.. 7 ¢2

كما أنه استخدم أسلوب المشاورة[٢] وليس هذا ليرجع عن رأيه، ولكن ليطمئن قلبه ويربط على نفسه، ويصبره حتى يتلقى هذا الأمر باستسلام وانقياد لله تبارك وتعالى وبذلك يحصل له الأجر والرضا من الله تعالى: (وكان عند ربه مرضيا).

٣/ قوله â ù فيها أبرز معاني العبودية، وهي الاستسلام والانقياد والخضوع، وفيها إيمان بقضاء الله وقدره ومعناها أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له خالصة، وكذلك معنى استسلم استخلص بنفسه لله وعن قتادة –رحمه الله – في "أسلما" أسلم هذا ابنه وهذا نفسه[٣].

٤/ موقف إسماعيل عليه السلام في استقبال هذا الأمر الجلل بقوله â ƒ

إنها صورة من صور التضحية في هذه القصة:

صورة التضحية بالنفس في سبيل طاعة الله وطلب رضاه وإنها لأعلى الصور، فما عند الإنسان شيء أعز عليه من روحه وأغلى، ولكن ها هو ذا إسماعيل – عليه السلام – يسلم روحه لله بدون ثمن سوى رضاه، وإنها لقمة الإيمان والشعور بأن روح الإنسان إنما هي أمانة عنده لم يهبها هو لنفسه وإنما وهبها الوهَّاب سبحانه، فهو المتصرف فيها متى شاء وأراد فلابد إذاً من تسليم الأمانة إذا طلبها واهبها ومعطيها عز وجل وبلا تردد

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي (٢١/٥) .

(٢) الكشاف ٩١٠.

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

ولا تلجلج ولا تمحل ولا سؤال قط، وإنما هي الإجابة الفورية بالقبول والرضا قبـــول المؤمن لأمر الله، ورضا الواثق بما عند الله من الأجر والثواب وإنها لا تساوي النفس شيئا إذا كانت مانعة عن الوصول إلى رضا الله[١].

٥/ منزلة الصبر التي تحلى بها إسماعيل عليه السلام، حيث قرن صبره في الآية بمشيئة الله تعالى لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله[٢] "ستجدني إنشاء الله من الصابرين" وفي قوله من الصابرين "من المبالغة في اتصافه بالصبر ما ليس في الوصف: بصابر؛ لأنـــه يفيـــد أنـــه سيجده في عداد الذين اشتهروا بالصبر وعرفوا به[٣].

وقد عدّ ابن القيم – رحمه الله – "منزلة الصبر من منازل إياك نعبد وإياك نـــستعين ... وذكر أن الصبر على ثلاث مقامات: صبر لله رجاء ثوابه وخوف عقابه وهو أعلاهـــا، وصبر بالله، وصبر على أحكامه.

والصبر لله فوق الصبر بالله وأعلى درجة منه وأجل، فإن الصبر لله متعلق بإلهيته والصبر به متعلق بربوبيته، وما تعلق بإلهيته أكمل وأعلى مما تعلق بربوبيته؛ ولأن الصبر له عبادة والصبر به استعانة، والعبادة غاية والاستعانة وسيلة، والغاية مرادة لنفـــسها والوســـيلة مرادة لغيرها.

ولأن الصبر به مشترك بين المؤمن والكافر والبر والفاجر، فكل من شهد الحقيقة الكونية صبر به.

وأما الصبر له: فمنزلة الرسل والأنبياء والصديقين وأصحاب مشهد إياك نعبـــد وإيـــاك نستعين؛ ولأن الصبر له: صبر فيما هو حق له محبوب له فرض له.... وكذلك كان صبر إسماعيل الذبيح وصبر أبيه إبراهيم عليهما السلام على تنفيذ أمر الله، أكمل مـــن صـــبر يعقوب على فقد يوسف"[٤].

---

(١) القصص القرآني (١/١١١ - ١١٢) .

(٢) تفسير السعدي ٧٠٦.

(٣) التحرير والتنوير (٩/١٥٢) .

(٤) مدارج السالكين (٢/١٦٨ – ١٦٩) .

٦/ أن الله قال في نهاية القصة على سبيل المدح والثناء لهما علـــى صـــنيعهما "[illegible]" فالسبب إنما هو بلوغهما درجة الإحسان التي هي أعلى مقامـــات العبودية لله تبارك وتعالى".

٧/ من عبودية إسماعيل – عليه السلام - في هذا الموقف موقف البر بالوالدين وبـــالأخص هنا إبراهيم عليه السلام حيث تتسامى في نفسه منزلة الحلم والخلق الجم فلم يعنف والده على فعله لعلمه بمحبة والده له، ولكن محبة الله تعالى فوق كل شيء، ومما يدل على تمام بره بأبيه واستماعه لنصحه وتوجيهاته، ما جاء في الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس – رضي الله عنهما - .

(... جاء إبراهيم عليه السلام بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سأل عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشر نحن في ضيق وشدة وشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له: يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل - عليه السلام – كأنه آنس شيئا، فقال: هل جاءكم مـــن أحد فقالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألني عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة قال: هل أوصاك بشيء ؟ قال: نعم أمرني أن أقـــرأ عليـــك السلام. ويقول لك: غير عتبة بابك، قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك فألحقي بأهلك وطلقها، وتزوج منهم أخرى ولبث عنهم إبراهيم عليه السلام ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته، فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله عز وجل فقـــال: ومـــا طعامكم ؟ قالت: اللحم قال: فما شرابكم قالت: الماء. قال: "اللهم بارك لهم في اللحم والماء" قال النبي ﷺ: "ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ ولو كان لهم حَبٌّ لدعا لهم فيه" قـــال: فهما لا يخلو عليها أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، قال: فإذا جاءك زوجك فاقرئي عليـــه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل – عليه السلام - قال: هل أتاكم من أحد قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرتـــه فـــسألني

كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير، قال: أفأوصاك بشيء ؟ قالت: نعم، هو يقـــرأ عليـــك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنت العتَبة أمرني أن أمسكك[1].

بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت:

تشير الآيات إلى شأنهما عند بناء الكعبة:

قـــال تعـــالى: ’?ÁßO¿Ù°•ßÛQ$)B `Ä{räÏB$ $ZØ&r Ä $Z=ÿ ßZ/$WB MØ7Ø&$Zè_ ØßÎr â :

Šqà•¡9$ÆŽ2 ¾9$ šú üÏÅ»è&Ø ûüÏÍ$ÜÝ=Ï ÓÉ/ #•ÛU b& Ø<Ê»JÙÎr O¿Ù°•ßÛ #<Î $R&ûãr

NÅÄB `B#ä ôB Ï°•JV9$`Ä ¼ã#d& øãÜ$ $ZÄ#ä #Ä#/ #‹»d ØèôÑ$É‘ Ð¿Ù°•ßÛ A$% ØßÎr ÇÏÈ

ÇÃJØ§ØÎr Í$Z9$É#‹ã 4<Î ¥ç¾ÜÊ&ÑêW‹î% ¼çãÊBé•ÿ. `Br A$% ÌÅÑ¥$ÜÇ<Ø «Ï

ßŠÜ¡9$MR& 7RÎ $YÄ Ø7)?$Z/‘ Ø@Šè»JÙÎr ÏMø7Ø&`Ä ‰ã#q)Ø&ÐÙ¿Ù°•ßÛ ßùÇ ØßÎr ÇÏÈ

$Yøã é÷êr $Y3Å$ZB $RÍ&r 7ÇZJÎóÄ ØBÉ$ZÏƒÍê`Är 79è#JÎóã$Zèô$r $Z/‘ ÇÏÐÈ ÐŠÎè&Ø

ÐßÜÏèãr 7Ï»ƒ#ä ÑÍÕæ{qè&ƒ ÑÅÄB ØqÑ‘ ÑÛ‹ï çèØr $Z/‘ ÇÏÑÈ ÐŠÎmS$ÜÝ#ßÇ9$MR& 7RÎ

Ð.[2]á ÇÏÐÈ ÐŠÅs&Ø&ßÍÍè&Ø&MR& 7RÎ ÑÍŽ]“ãr pJÕÏtØ& =»GÅ&Ø&

وقال سبحانه: ÇÜÏÈ ûüÜ=»èÙ “ ‰èr ‰Z‘$7ãpÇ6Î “ Ï‰®Ä $Y=ÿ ìÆãMØ/ Aï& ÞÎâ:

ÇB ÏMø7Ø&Ì•kÏm Ä $Z9$ ’?ã ¬r $YÄ#ä b‰. ¼ã#zŠ `Br OŠÙ°•ßÛ ß$)B ÏM»ŽÉ ÏM»ƒ#ä ÏŠÙ

Ð.[3]á ÇÐÈ ûüÜ=»è&ØÇã ÓÍî ¢$ÞÎù•ÿ. `Br W‹î™ ÏnØÎ í$ÜÕÜ$

وقال تعالى: ÓÉ=/ ÙÛr $\Ø© ’Î ñ, ÎÕèŽv b& ÏMø7Ø&šc ‰3B OŠÙ°•ß} $RÙ/ ØßÎr â:

Ø‰`Í š, qÊƒ Ø&ÆØ&Ä $Y9$ ’Î bÆ&r ÇÏÈ Šqà•¡9$ÆŽ2 ¾9$ šú üÜÍ$)Ø& šú üÏÍ$ÜÝ=Ï

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح كما في جامع الأصول (١٠/٧٨١٩)، والجمع بين الصحيحين للحميدي (٢/٦٦) برقم (١١١١).

(٢) سورة البقرة: ١٢٥ – ١٢٩.

(٣) سورة آل عمران: ٩٦ – ٩٧.

«! $NÖ"$(rêà2 õƒr NG9 ì Ÿ»YB (rRgê•Ï) ÇÈ 9ŠÜã ßù ê ä `Ï šú üÝÙ(9B$Ê ê à2 4?ãr

ÇÈNÈ Ž•Ê)Ÿ¥ § í$6¥¥(qÜÊÔ&r $k]Ï (qèÙ É»è¤F{$pJ‹ù/ .`Ï NG%–' $B 4?ã B¤»BqèÈB Q$ƒ& þî

.(١) á ÇÈÈ ÈŠÎè¥¥MÝ¥¥ (qèŠÖ‹Ør Nd'rãÇ(qèqÃør NGWŸ? (qÈÒ›Ø‹ÞÊ

- **وقفات حول الآيات:**

١/ قوله سبحانه: â :Ør ùèG/ $R Ü•Ð} OŠÜº c %3B ¥¥šc ¥¥Má (٢) أن الله تبارك وتعالى دلَّ إبراهيم – عليه السلام – وبين له مكان البيت(٣)، حيث جعله أشرف بقاع الأرض.

٢/ قوله تعالى: â :Ør ùèq Ø Ð¿Ü•Ð) ßù ê ‰ã#q) ¥¥Ø `Ï ‰ã#q) ¥¥MÝ¥¥J Ø"Ør MR& 7Ñ) $YÏB @7–)?$Z/' @Šé»JØ"Ør MÝ¥¥

á ÐŠÎè¥¥ßŠÜ ¡¡ 9$ (٤) وهنا فيه تمام الاستجابة والانقياد لأمر الله من إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - حيث قال إبراهيم لإسماعيل، إن الله أمرني بأمر قال: فاصنع ما أمر به ربك قال: وتعينني ؟ قال: وأعينك قال: فإن الله أمرني أن ابني ههنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت وجعل إسماعيل – عليه السلام - يأتي بالحجارة وإبراهيم – عليه السلام - يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل – عليه السلام - يناول الحجارة وهما يقولان â :Ør ùèq Ø Ð¿Ü•Ð) ßù ê ‰ã#q) ¥¥Ø `Ï ‰ã#q) ¥¥MÝ¥¥J Ø"Ør MR& 7Ñ) $YÏB @7–)?$Z/' @Šé»JØ"Ør MÝ¥¥

á ÐŠÎè¥¥ßŠÜ ¡¡ 9$ (٥) قال: فجعلا يبنيان، حتى يدورا حول البيت وهما يقولان(٦): â :Ør ùèq Ø Ð¿Ü•Ð) ßù ê ‰ã#q) ¥¥Ø `Ï ‰ã#q) ¥¥MÝ¥¥J Ø"Ør MR& 7Ñ) $YÏB @7–)?$Z/' @Šé»JØ"Ør MÝ¥¥

á ÐŠÎè¥¥ßŠÜ ¡¡ 9$.

فهما – عليهما السلام – طلبا من الله قبول عملهما وأن يكون خالصاً لله وتوسلا إليه بالدعاء الذي يحمل معنى التذلل والخشوع والقنوت لله تعالى .

٣/ إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – هما أول من بنيا الكعبة، وأن الكعبة لم تبن قبلهما لعدم وجود أحاديث صحيحة حول بناء البيت قبل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

---

(١) سورة الحج: ٢٦ – ٢٩.

(٢) سورة الحج: ٢٦.

(٣) فتح القدير (٣/٤٤٧) .

(٤) الحج: ٢٦.

(٥) البقرة: ١٢٨.

(٦) أخرجه البخاري كما في عمدة القاري للعيني (٢٣/٢٣٦) برقم (٤٦٣٣) .

ولذا يقول ابن كثير – رحمه الله –: "أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يبني له بيتاً يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السموات، وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له، المعين لذلك منذ خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، ولم يجيء في خبر صحيح عن المعصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل – عليه السلام – ومن تمسك في هذا بقوله: "مكان البيت" فليس بناهض ولا ظاهر؛ لأن المراد مكانه المقدر في علم الله، المقرر في قدره، المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم – عليه السلام - إلى زمان إبراهيم – عليه السلام - وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبة وأن الملائكة قالوا: له قد طفنا قبلك بهذا البيت وأن السفينة طافت به أربعين يوما أو نحو ذلك، ولكن كل هذه الأخبار عن بني إسرائيل وقد قررنا أنها لا تُصدق ولا تكذب فلا يحتج بها فأما إن ردها الحق فهي مردودة[1].

7RÎ $Yøãé÷ér $Y3Å$ZB $RÍ&r 7ÐZJîóÞ ÞBé$ZÏfhÈ `Ïr 79Ï#Jîóß $Zèê_$r $Z/‘ â /٤

á ÇÈÈÈ ÐŠïm9$ÐÜ #ßG9$MR& [2].

في هذه الآية طلبا من الله أن يجعلهما مُسْلِمَين حيث دعوا لأنفسهما وذريتهما بالإسلام الذي حقيقته خضوع القلب، وانقياده لربه المتضمن الانقياد الجوارح، وفي هذا الدعاء دليل على الحض على طلب الثبات على هذه العقيدة السليمة[3]

á $Y3Å$ZB $RÍ&r â أي علمناها على وجه الإرادة والمشاهدة ليكون أبلغ يحتمل أن يكون المراد بالمناسك: أعمال الحج كلها كما يدل عليه السياق والمقام ويحتمل أن يكون المراد ما هو أعم من ذلك، وهو الدين كله والعبادات كلها كما يدل عليه عموم اللفظ؛ لأن النسك التعبد، ولكن غلب على متعبدات الحج تغليبا عرفيا، فيكون حاصل دعائهما يرجع إلى التوفيق للعلم النافع والعمل الصالح، ولما كان العبد مهما كان لابد أن يعتريه التقصير ويحتاج إلى التوبة قالا[4]: â :7RÎ $Yøãé÷ér فهما يطلبان áÐŠïm9$ÐÜ #ßG9$MR&

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٢٩) قصص القرآن لابن كثير ١١٤.

(٢) سورة البقرة: ١٢٨.

(٣) تفسير السعدي ٦٦.

(٤) تفسير السعدي: ٦٦.

من الله التوبة التي هي معنى من معاني العبودية لله تعالى؛ لأنه ليس أحد من خلق الله إلا وله من العمل – فيما بينه وبين ربه – وما يجب عليه الإنابة منه والتوبة فجائز أن يكون ما كان من قبلهما ما قالا من ذلك إنما خصا به الحال التي كانا عليها من رفع قواعد البيت؛ لأن ذلك كان أحرى الأماكن أن يستجيب الله فيها دعاءهما وليجعل ما فعلا من ذلك سنة يقتدى بها بعدهما، وتتخذ الناس تلك البقعة بعدهما موضع تنصل من الذنوب إلى الله، وجائز أن يكونا عنيا بقولهما "$YøãéêÞr" وتب على الظلمة من أولادنا وذريتنا الذين أعلمتنا أمرهم من ظلمهم وشركهم، حتى ينيبوا إلى طاعتك فيكون ظاهر الكلام على الدعاء لأنفسهما والمعني به ذريتهما[1]

٥/ البشارة من الله لهما حينما دعيا الله أن يرسل من ذريتهما رسولاً فاستجاب الله لهذا الدعاء الصادر من قلبين مخلصين.

"=»GÅ#ÐDGÏèñr" أي يقرأ عليهم كتابك الذي توحيه إليه "7Ï»fä ÑÍÞæ{qè&f": ويعني "الكتاب" القرآن والحكمة قيل: السُّنة، وقيل المعرفة بالدين والفقه فيه.

و"ã"“ÑÍÞ " أي يطهرهم من الشرك بالله وعبادة الأوثان، وينميهم ويكثرهم بطاعة الله[2].

٦/ â $Ïräï¡Ø` B)Q$Ï•0¿O ÂÁ?'á[3].

ما المراد بقوله "B)Q$Ï•0¿O " ؟

اختلف المفسرون في المراد بالمقام على قولين:

١/ مقام إبراهيم – عليه السلام – الحرم كله، وهي المشاعر كلها من الطواف والسعي والوقوف بعرفة، ومزدلفة، ورمي الجمار والنحر وغير ذلك من أفعال الحج[4].

---

(١) تفسير ابن جرير (١/٦٠٥ – ٦٠٦) .

(٢) تفسير ابن جرير (١/٦٠٨) .

(٣) سورة البقرة: ١٢٥.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير (١/٥٨٤ – ٥٨٥) تفسير ابن كثير (١/٢٢٣) .

٢/ الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم عليه السلام حين بنائه الكعبة؛ ليرتفع لوضع الحجارة في أعلى الجدار كما أخرجه البخاري والذي سبق أن أشرت إليه[١].

وقد ثبتت آثار قدميه في الحجر، قال أنس بن مالك – رضي الله عنه -: رأيت في المقام أثر أصابعه وأخمص قدميه، غير أنه أذهب مسح الناس بأيديهم وهذا الحجر يعرف إلى اليوم بالمقام، وقد ركع النبي r في موضعه ركعتين بعد طواف القدوم، فكان الركوع عنده من سنة الفراغ من الطواف.

المصلى: موضع الصلاة والعبادة، وصلاتهم يومئذ الدعاء والخضوع إلى الله تعالى.

وقد رجح القول الأول الشيخ ابن السعدي – رحمه الله – حيث قال: "ولعل هذا المعنى أولى لدخول معنى "الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم. فيه واحتمال اللفظ له"[٢].

أما ابن جرير – رحمه الله – فقد رجح القول الثاني حيث قال: وأولى هذه الأقوال بالصواب عندنا، ما قاله القائلون: إن مقام إبراهيم "هو المقام المعروف بهذا الاسم الذي هو في المسجد الحرام لما روي عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال: قلت يا رسول الله، لو اتخذت المقام مصلى، فأنزل الله "á '?ÁãO¿Ù°•ñ)Q$)B `Ï{ra¡ïB$r â" – وكانت هذه من موافقات عمر – رضي الله عنه -[٣] .

وكذلك حيث آخر عن جابر – رضي الله عنه – قال: "استلم رسول الله r الركن، فرمل ثلاثا، ومشى أربعا، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ: á '?ÁãO¿Ù°•ñ)Q$)B `Ï{ra¡ïB$r â فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين[٤].

فهذان الخبران ينبئان أن الله تعالى ذكره إنما عني بـ(مقام إبراهيم) الذي أمرنا الله باتخاذه مصلى هو الذي وصفنا، ولو لم يكن على صحة ما اخترنا في تأويل ذلك خبر عن رسول الله r لكان الواجب فيه من القول ما قلنا، وذلك أن الكلام محمول معناه على

---

(١) انظر الحديث ص٣٧٦.

(٢) أخرجه الفاكهاني في أخبار مكة ١/٤٥٠ تحقيق: عبد الملك بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة بمكة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

(٣) أخرجه الإمام في المسند (١/٢٥) بسند صحيح وأخرجه البزاز في مسنده (١/١٧٠) وابن جرير في تفسيره (٢/٣٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢/٨٨٦) برقم (٢١٨) .

ظاهره المعروف دون باطنه المجهول، حتى يأتي ما يدل على خلاف ذلك مما يجب التسليم له ولا شك أن المعروف في الناس بـــ(مقام إبراهيم) هو المصلى الذي قال الله تعـــالى ذكـــره "O¿Ü°•ßÎ Q$)B"[1].

قلت: واختيار ابن جرير – رحمه الله – هو الذي تطمئن إليه النفس لما ثبت في ذلك الخبر عن رسول الله r .

(١) تفسير ابن جرير – رحمه الله – (١/٥٨٦) .

عبودية إسحاق – عليه الصلاة والسلام –

ذكر إسحاق – عليه السلام – في القرآن الكريم سبع عشرة مرة في سورة: البقرة وآل عمران، والنساء، والأنعام، وهود، ويوسف وإبراهيم، ومريم والأنبياء والعنكبوت، والصافات، وص .

ففي سورة البقرة ذكر اسم إسحاق – عليه السلام – في قوله: â ÞÁ¾ÇYÀ‰kÀ ¤ÉÃ‰ÀÀ

7 ÍÀ/#ä m»9Ì 7 g»9Ì ¾ÇÈR ¢qÀ% " ¼È/ .`B brÇÈ? $B ÌÍ‹Í7Ì A$% ÉÌ ¤ÉÃJÀÀ > qÀÈƒ ŽØm

.[1] á ÇÌÍÈ bqÉÍóÀ¼Ã ßÀr #%ÌÍ°r $Y»9Ì ,»sÖÌr ÖŠÈ»JÖÌr O¿Ð°•Ì

فقد ورد اسمه عليه السلام في ثنايا وصية يعقوب – ابنه – لأبنائه على تقرير القضية الكبرى في الدين، وهي قضية العبودية، وأنها مختصة بالإله الحق المعبود وحده دون سواه[2].

وفي قوله: ,»sÖÌr ÖŠÈ»ÌÉr O¿Ð°•Ì #‹Ì AÌ‹É$Br $ZÀÌ AÌ‹É$Br «‹ $YB#ä ¢qÉqÈâ :

‰n¿ ûÀ/ äÌÝÇ‹Ö ÓÌÍ§ `B šc qŠÍ¥Y9$’ÎrÉ$Br Ó¤ŠÃr Ó›qÃ ’ÎrÉ$Br Å$6ÖÍF$ > qÀÈƒr

.[3] á ÇÌÍÈ bqÉÍóÀ¼Ã ßÀr ÓÌ¥B

ورد ذكر اسمه عليه السلام في تقرير عقيدة الإيمان بالله، وأنها لا تنفك عن الإيمان برسله بحال من الأحوال؛ لأن من مقتضى الإيمان بالله تصديق المؤيدين بتأييد الله لهم بالبراهين والمعجزات، ثم إن الإيمان بواحد من الرسل لا ينفك عن الإيمان بجميع الأنبياء والرسل الصادقين فموجب الإيمان في الكل واحد[4].

---

(١) سورة البقرة: ١٣٣.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/٢٤٥) .

(٣) سورة البقرة: ١٣٦.

(٤) دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم بتصرف يسير د. زاهر الألمعي ٢٣٥-٢٣٦ .

كما ورد ذكره عليه السلام في نفي أن يكون يهودياً أو نصرانياً، بل هو على الملـــة الحنيفية ملة أبيه إبراهيم عليه السلام. قـــال تعـــالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

كما ذكر اسمه في سور آل عمران في تقرير قضية الإيمان بالرسل وأنه ركن من أركان العقيدة. قال تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[2].

كما أثنى الله على نبيه إسحاق عليه السلام في ثنايا ذكره ومدحه لمن أوحى الله إليهم من النبيين قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾[3].

كما أخبر سبحانه أنه رفع درجة إبراهيم – عليه السلام - وذريتـــه مـــن بعـــده؛ لحصولهم على الهداية، والإيمان، والتزام الصراط المستقيم قال الله تعـــالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[4].

أي وهب الله لإبراهيم ابنه إسحاق وحفيده يعقوب – عليهم السلام - وهداهما وجعلـــهما نبيين عليهم الصلاة والسلام.

وفي سورة هود ذكر مرتين في سياق الحديث عن بشارة الله لـــسارة بإســـحاق، ثم يعقوب – عليهما السلام -، قال تعـــالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾

---

(١) سورة البقرة: ١٤٠.

(٢) سورة آل عمران: ٨٤.

(٣) سورة النساء: ١٦٣.

(٤) سورة الأنعام: ٨٣ – ٨٤.

كما وردت بشارته في سورة الحجر أيضا حيث قال المولى عز سلطانه: [1].

وجاءت البشارة في سورة الذاريات بسياق آخر قال تعالى: [2].

هذه الآيات أشارت إلى مجيء الملائكة لإبراهيم — عليه السلام — لحمل البشارة وهذه البشارة اقتضت أمرين — والله أعلم —

---

(١) سورة هود: ٦٩ — ٧٣.

(٢) سورة الحجر: آية ٥١ — ٥٦.

(٣) سورة الذاريات: آية ٢٤ — ٣٠.

الأول: الموعظة بمصير قوم لوط إذ عصوا رسول ربهم، فحل بهم العذاب و لم تغـــن عنهم مجادلة إبراهيم[١].

الأمر الثاني: البشارة بإسحاق عليه السلام من زوجه ساره.

ففي قوله سبحانه "ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى" تأكيد الخبر بحرف (قد) للاهتمام به[٢]، وأن الله أرسل الملائكة لإبراهيم عليه السلام وبادروه بالتحية "فقالوا سلاما" فقال إبراهيم عليه السلام: "سلامٌ" قال ابن عطية: – رحمه الله – "حيا الخليل بأحسن مما حيي به، أي نظر إلى الأدب الإلهي الذي علمه لنا في القرآن[٣] بقوله: â #Œ)r ãhm Lèš LÎ/ Fî Å p§S ù(q‹s t'ĥ ôm i| `B !$k]iB ¨$ r & â$d rš â[٤].

والفاء في قوله "فما لبث" للدلالة على التعقيب، إسراعا في إكرام الضيف وظنـــهم إبراهيم عليه السلام ناسا فبادر إلى قراهم[٥] مع أنه لا يعرفه وكذلك التعـــبير في قولـــه: "فراغ" â b& `!ä êÎ ŏ@@ mŸš7 á[٦] وفي موضع آخر قال â ùÚ$ä êÎ ŏ@@ ™Ü üi& á[٧].

فالحنيذ أي المشوي أسرع من الطبخ، فهو أعون على تعجيل إحضار الطعام للضيف[٨].

لما قربه إبراهيم إلـــيهم â ù<$ ‘ä# ‰ ¤Èi ß w? @Å (ŏ)ni R 6Å•d Ŭr # _ § Bĵ‡ Ŭ £ z‹y p á[٩]

الوجس: هو الصوت الخفي ويطلق على ما يعتري النفس من الـــشعور بـــالخواطر عنـــد الفزع[١٠] وفي سورة الحجر كان واضحاً أثر الخوف حيث قال: (إنا منكم وجلون).

بعد ذلك طمأنته الملائكة، وأزالوا عنه هذا الخوف، وأخبروه بالسبب الذي دعاهم

---

(١) التحرير والتنوير (١١٦/٥) .

(٢) التحرير والتنوير (١١٧/٥) .

(٣) تفسير المحرر الوجيز ١٧٧/٥.

(٤) سورة النساء: ٨٦.

(٥) التحرير والتنوير (١١٧/٥) .

(٦) سورة هود: ٦٩.

(٧) سورة الذاريات: ٢٦.

(٨) التحرير والتنوير (١١٧/٥) .

(٩) سورة هود: ٧٠.

(١٠) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦٥/٥).

للمجيء إليه، وهو إهلاك قوم لوط، وبشارته بإسحاق – عليه السلام -، لكـــن لنتـــصور موقف إبراهيم عليه السلام حين سمع هذا الخبر منهم.

ž9Å6 ø$ÓÍ¡¡ B b& #?ã 'Îq3ëø±0& A$% ÇÎÌÈ Ö$Îæ Ø»=áÎ 8žÅ;Ç$ÑÎ @_ö? Ÿw ¶qø$% â

`B á'Zøf `Br A$% ÇÎÌÈ šú üÜÏ)ø$`B `a? Ÿxù Ès7ø 7»Rö±0 ¶qø$% ÇÎÍÈ brë6ê Oîù

.[1] á ÇÎÌÈ šc q9$ŽÒ9$ŠvÎ ¥ÿÎ' þJô§

وقال في سورة الحجر â :qrë±0r [2] á Ø»=áÎ 8žÅ;Ç$ÑÎ â وقال في سورة الذاريات

.[3] á Ö$Îæ Ø»=áÎ

وأخبر عن نبوته في سورة الصافات، فقال: â ,»sðÎ qÒŽ=0r [4] á Ç¨ÈšúüÅÎ»¢Á9$`B $ŠÎR.

فإبراهيم – عليه السلام – لما بشر بإسحاق – عليه السلام – قالت لـــه الملائكـــة: â 7»Rö±0 ¶qø$% ÇÎÌÈ šúüÜÏ)ø$`B `a? Ÿxù Ès7ø [5] á أي من الآيسين من الولد وكان قد أيس من الولد لفرط الكبر يعني أنه استبعد الولد لكبر سنه لا أنه قنط مـــن رحمـــة الله تعالى[6].

أما موقف زوجه سارة: فقد حكى القرآن شأنها وأنها حصل لها التعجب كما حصل لإبراهيم – عليه السلام -.

@ø ëÎ ä!` b& ]Î9 $Jù Ö=™ A$% $V=™ ¶qø$% 2" Žô6ø LìÐ°•ó $Zè$âÐ ä!` ø)9r â

$ÑÎ ø# ,? Ÿw ¶qø$% ¤Ÿ<Å ÐÆ¶B § _ ¶r Ðè•Å6 R ïnÎ @Ã? Ÿw ÐÅ‰¶ ä‘ $H›ù ÇÏÈ 7šÏm

---

(١) سورة الحجر: ٥٣ – ٥٦.

(٢) سورة الحجر: ٥٣.

(٣) ٢٨.

(٤) ١١٢.

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن (٣٥/٥ - ٣٦).

(٦) سورة الحجر: ٥٥.

,»sÖÎ äÍ‘r `Ïr ,»sÖÎí $g»Rëœ6ù ÑM3Å×Ùù pxJÍ-$% ¼qÇ•Ð¤r ÇÈÈ Þqä Ùq% 4<Î $Z‡ÅÖé

Ê‹Éã âáÓ´9 #‹»dr žc Î $¸,ø© ’íè/ #‹»dr ×qäí ã ÐXr äÎ‰ä ÓL-ƒq»f ÑM9$% ÇÈÈ >qäèf

.(١)á ÓÅ ÓÏq ¼çÎ) Ïœ7¤$Ø«d‰ ß3æ¼qç5.•/r ‹ ¤ÑM+q‘ ‹ ¤Ì›B‰ ôÏ ûüÎ f è?‰ ¤ÑM% ÇÈÈ

وإنما أنكرت الملائكة تعجبها؛ لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات، فكان عليها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيت النبوة.

وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجيب، وإلى ذلك أشارت الملائكة حيث قالوا: رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت، أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة، ويخصكم بالإنعام يا أهل بيت النبوة فليست بمكان عجيب، وهو كلام مستأنف علل به إنكار التعجب: كأنه قيل و لم التعجب؛ لأن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم"(٢).

فلما علمت الملائكة بفرحها بهذا الولد كان من تمام البشارة أن بشرت أيضا بولد الولد وهو يعقوب بن إسحاق - عليهما السلام - وفي التعبير الذي جاء في سورة الذاريات

.(٣)á ÇÈÈ ›ÉÃã î-qè” ÑM9$%r $ggô_r ÑM3Áù ¤ŠÀ ’Î ¼çÎ•Ð¤M=7‰ù â

من عادة النساء إذا حصل لديهن تعجب من شيء تضرب خديها بكفيها، فرد الملائكة المرسلون إلى أمر الله تعالى بحكمة وعلم(٤) â qè ¼çÎ) Ä‹Š‘ A$% Ä‹Ï°‹ . ƒqŒ% â

.(٥)á ÇÌÈ Ð¤îè‰ÐD‹ÅÛ‰$

تبين من خلال الآيات التي تحدثت عن البشارة أن نبي الله إسحاق - عليه السلام — عبد من عباده الصالحين، ونبي من أنبيائه أعطاه الله العلم الكثير حيث قال: â

---

(١) سورة هود: ٦٩ — ٧٣.

(٢) تفسير النسفي: ٥٠٦.

(٣) سورة الذاريات آية: ٢٩.

(٤) انظر تفسير ابن كثير (٢٩٩/٤) .

(٥) الذاريات: ٣٠.

وقولـــــه: [١] وقولـــــه: [٢] .[٣]

كما ورد ذكر إسحاق عليه السلام في سورة يوسف في إبراز تمام الإنعام عليه مـــن قبل المولى تبارك وتعـــالى: .[٤]

كما بين يوسف عليه السلام أن عبوديته لربه وعقيدته الإيمانية ما هي إلا باتباع منهج آبائه وذكر منهم إسحاق عليه السلام .[٥]

والسعادة الحقيقية هي باتباع طريق السالكين لمنهج الحنيفية الـــسمحة، وهـــا هـــو إبراهيم عليه السلام يرفع أكف الضراعة لله شاكراً له على أن وهبه عباداً أنبياء صالحين، قال تعالى: .[٦]

وقال أيضاً: .[٧]

وفي سورة الأنبياء تأتي مزيد منة منه سبحانه على إبراهيم عليه السلام بأن أعطـــاه ابنه إسحاق، وبشره بأن هذا النبي العليم سيرزقه الله نبياً من الصالحين

---

(١) سورة الذاريات: ٢٨.

(٢) سورة الحجر: ٥٣.

(٣) سورة الصافات: ١١٢.

(٤) سورة يوسف آية: ٦.

(٥) سورة يوسف: ٣٨.

(٦) سورة إبراهيم: ٣٩.

(٧) سورة مريم: ٤٩.

$ZŠømr&r $R‹Ø'Î šc r‰ö ¤Ø&Ø Ø§»Zè_r ÇÈš ú üÅî»¹ $Zè_ yxär \#ü$R >qàèfr

.[1]á ûï‰Î»ã $Y9 {q‰.r íq‹Ÿ2 "9$ä$Ff)r íq‹Á9$Q$%)r ÏN°Žö, ‰$Ø@èÏ ÙÎgø)

قال السعدي – رحمه الله - تعليقاً على آيات سورة الأنبياء:

"šú üÅî»¹ $Zè_ yxär" أي قائمين بحقوقه وحقوق عباده، ومن صلاحهم أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماما يهتدي به المهتدون ويمشي خلفه السالكون؛ وذلك لما صبروا وكانوا بآيات الله يوقنون، وقوله: "$R‹Ø'Î c r‰ö" أي يهدون الناس بديننا لا يأمرون بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه واتباع مرضاته، ولا يكون العبد إماما حتى يدعو إلى أمر الله.

"ÏN°Žö, ‰$Ø@èÏ ÙÎgø) $ZŠømr&r" يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل لجميع الخيرات من حقوق الله وحقوق العباد.

"íq‹Ÿ2 "9$ä$Ff)r íq‹Á9Q%)r"، هذا من باب عطف الخاص على العام؛ لشرف هاتين العبادتين وفضلهما؛ ولأن من كملهما كما أمر كان قائما بدينه، ومن ضيعهما كان لما سواهما أضيع؛ ولأن الصلاة أفضل الأعمال بعد الشهادتين، والزكاة أفضل الأعمال التي فيها الإحسان لخلقه تعالى: "ûï‰Î»ã" أي لا لغيرنا "$Y9 {q‰.r" أي: مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية في أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم فاتصفوا بما أمر الله به الخلق وخلقهم لأجله"[2].

كما أثنى الله على إبراهيم وإسحاق عليهما السلام في حصول البركة في العلم والعمل والدين، والدنيا #?ãr ïøã $Zø•»/r ÇÈš ú üÅî»Á9$`Ï $ŠÎR ,»sÖ¹Î ‰ŽÐ0r â [3] á ÇÈÑú üÏÅ¾ïÅÝÞZÏ ÙÖ$ßr ÖÅ‰ê$JÙÏƒíê`Ïr ,»sÖ¹Î وهذا كقوله في سورة العنكبوت [4] á ÇÈû üÅî»Á9$`Ü9 í•ÅF$'Î ¼‰R)r $<R‰9$'Î ¼‰•ô&‰Y?#är â.

(١) آية: ٧٢ – ٧٣.

(٢) تفسير السعدي، ٥٢٧.

(٣) سورة الصافات: ١١٢ – ١١٣.

(٤) آية: ٢٧.

كما وصفهم سبحانه بالعبودية في قوله: > qàè∱r ,»sϑ)r Lìü°•ó) $R‰»7ä ëëG$r â

`Ü9 $R‰Zä ¤¤å)r ÇÍÌÈ í#$!$ " •ò2 Ïε¯ÁÏ$ƒ2 NG»YÁ=z&$R) ÇÍÌÈ ì»ÁóF{$ " ï‰ƒF{$'íré

.[1] á ÇÍÈ í$Š=z F{$ûïÜÁ¤¤$

بعد وصفه سبحانه لإبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام بالعبودية "وصفهم بأنهم" أولي الأيدي والأبصار "كناية عن العمل الصالح بالأيدي والنظر الصائب أو الفكر السديد".

كما يذكر من صفتهم التكريمية أن الله أخلصهم بصفة خاصة ليذكروا الدار الآخرة ويتجردوا من كل شيء سواهما "í#$!$ " •ò2 Ïε¯ÁÏ$ƒ2 NG»YÁ=z&$R) " فهذه ميزتهم ورفعتهم وهذه جعلتهم عند الله مختارين أخياراً "í$Š=z F{$ûïÜÁ¤¤$`Ü9 $R‰Zä ¤¤å)r " .

(١) سورة ص: ٤٥ – ٤٧.

عبودية يعقوب عليه السلام

يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام، كلهم أنبيـــاء كمـــا أخبر القرآن أن النبوة كانت في ذرية إبراهيم إمام الحنفاء عليه الصلاة والسلام، ومن ولديه إسماعيل وإسحاق عليهما الصلاة والسلام.

قال سبحانه: [illegible].[1]

فإسماعيل بن إبراهيم عم ليعقوب عليهم السلام، ويعقوب أب ليوسف عليهما السلام.

وقد ذكرت في حديثي عن عبودية إسحاق – عليه السلام – أن الله بشر إبـــراهيم - عليه السلام - وزوجه سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قـــال جـــل وعـــلا: [illegible]

[illegible].[2]

والشاهد (رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت).

فالله قد أحل رحمته على أهل بيت إبراهيم عليه السلام، ونشر عليهم بركاته ونعمه وأهل هذا البيت من أفضل الناس عند الله، وهذا البيت من أشرف البيوت وأكرمها عند الله لأنه بيت النبوة والعبادة.

وهؤلاء الأنبياء كرام الأب، والابن، والحفيد، وابن الحفيد، فالأب إبراهيم، والابـــن إسحاق، والحفيد يعقوب، وابن الحفيد يوسف عليهما الصلاة والسلام[3].

١/ والقرآن ينفي عن يعقوب عليه السلام أن يكون على اليهودية والنصرانية، بل هو على الحنيفية السمحة، قال تعالى: [illegible]

---

(١) سورة الحديد: ٢٦.

(٢) سورة هود: ٧١ – ٧٣.

(٣) القصص القرآني، لصلاح الخالدي (٢/٤٥) .

ç‰»g© OG. `ÆÏB Æ=Ø& ôBr ª! ÆÖQ& Æ=ã& ÆÇR& Ø@è 3' •» ÁR ÷& #Šqè ((qÇ. Þ$7ÆÏF$r

.(١)á «! $ŠÆ Ï ¼ç‰Ÿã

وقال الله في تبشيره لإبراهيم عليهما الصلاة والسلام: â ,»sÆÎ/ çRŽ=Ø0r

¾ïÅÿZÎ ÆÖ$ßr ÖÅ÷ê $JÎÏf÷ê `Ïr ,»sÆÎ #?ãr ïø÷ã $Zø•»/r ÇÈ šú üÅî»Á 9$`Ï $ÆÎR

.(٢)á ÇÈÑú üÎã

فمن ذرية إبراهيم — عليه السلام — أنبياء صالحون ومؤمنون ومن ذرية إسحاق مثلهم(٣)، ومنه هذا النبي الكريم يعقوب عليهم الصلاة والسلام.

كما نص الله على نبوة يعقوب عليه الصلاة والسلام في ثنايا خطابه لرسوله محمد r

Ø$Ê»JÆÎr OŠÜ°•Î #Î $Zåø÷&r ¾íï‰è/ .`Ï `¿ÎZ9$ 8yqÇ4Î $Zø÷&$J. 7 ØÎ $Zø÷&$ÑÎ â

.(٤)á Å$6ÆÏF$r >qàèƒr ,»sÆÎr

وأثبت الله ليعقوب — عليه السلام - صفة العبودية الخاصة حيث قال: â

ÞÁÏ$ƒ2 NG»YÁ=z&$ÑÎ ÇÍÎÈ ì»Á ÆF$ “ ï‰ƒF$’ íré>qàèƒr ,»sÆÎr LìÜ°•Î $R‰»7Ã

.(٥)á ÇÍÈ í$Š=zF$ûïÜÁ Ø9$`Ü9 $R‰ZÃ ÑÅÎr ÇÍÈ í#Ø!$“ •ò2 Ï

وقال الله تعالى عن يعقوب وإسحاق عليهما السلام عندما بُشر بهما إبراهيم عليه الصلاة والسلام: â

$ZÏHq§`Ï M$ç$Yzdrr ÇÍÈ $ÆÎR $Zè_ yxär >qàèƒr ,»sÆÎ $Yzdr

.(٦)á ÇÎÈ $ÆÎã A‰ï¹ b$¡Ï Ñç$Zè_r

---

(١) سورة البقرة: ١٤٠.

(٢) سورة الصافات: ١١٢ — ١١٣.

(٣) سورة النساء: ١٦٣.

(٤) التحرير والتنوير (١٦٢/٩).

(٥) سورة ص: ٤٥ — ٤٧.

(٦) سورة مريم: ٤٩ — ٥٠.

وقوله "$ZÏHeq§ `B MÇ; $Y¯ddrr" هي النبوة، وذكرها بعد جعلِهم نبيا؛ للإيذان بأنها من باب الرحمة، وقيل هي المال والأولاد وما بُسط لهم من سعة الرزق، وقيل هو الكتاب والأظهر أنها عامة لكل خير ديني ودنيوي أوتوه مما لم يؤته أحداً من العالمين[١].

"$ÎÃ AßÏ¹ b$¡Ï ÑÇ; $Zèè_r" يفتخر بهم الناس ويثنون عليهم استجابة لدعوة – إبراهيم عليه السلام – بقوله "واجعل لي لسان صدق في الآخرين" والمراد باللسان ما يوجد به من الكلام ولسان العرب لغتهم وإضافته إلى الصدق، ووصفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يثنون عليهم وأن محامدهم لا تخفى على تباعد الأعصار، وتبدل الدول وتحول الملل والنحل[٢].

ويعقوب عليه السلام ورد ذكر اسم آخر له في القرآن وهو إسرائيل حيث ذكر مرتين:

الأولى: في سورة آل عمران حيث قال الله سبحانه: Ó͡Íöï yxïm b$Ÿ2 Ò$èÖ9$@ä â

ï1‘ôG9$ƒ ¶qèù @è è1‘ôG9$A”\è b& è6% `B ¾ïÅÝR 4?ã @ƒïÅžóÎ P$m $B ŠÎ ÏƒïÅžóÎ

á ÇÌÈ šú üÏ‰» ¹ ÑÇZä bÎ $dqè$ù[٣].

الثانية: في سورة مريم في قوله سبحانه وتعالى: `B NÍŽã ª! $NèR& `ƒ¶G$ 7Í¯9rêâ

$Zƒ‰d ôÐÏBr ÏƒïÅžóÎr LìÏ°•ÎÎ ïƒíè `Ïr ÑqÇ ìB $Y¯Jm ôÐÏBr PŠ#ä ïƒíè `B `¿ÎÎY9$

á ÇÎÌÈ) $¨ÅÇr #‰ÉÎ$ ¶r• z Ç»¶eS$$M»ƒ#ä ÏÏ øæ 4?Ge#ÉÎ $YøGô_$$[٤].

وفي هذه الآيات الكريمات بيان خشيتهم من الله تعالى، وإخباتهم له مع ما لهم من علوا الرتبة، وسمو الطبقة في شرف النسب، وكمال النفس والزلفى من الله عز سلطانه[٥].

---

(١) تفسير أبي السعود (٤/٢٤٥) .

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) سورة آل عمران: ٩٣.

(٤) سورة مريم: ٥٨.

(٥) تفسير أبي السعود (٤/٢٤٧) .

أما ما ورد في جوانب عبوديته لربه في سورة يوسف عليه السلام ما يلي:

١/ الصبر الجميل، وذلك حينما دبر أبناؤه المكيدة لأخيهم يوسف عليه السلام وكذبهم على أبيهم بأنه أكله الذئب، ماذا كان موقف العبد الصابر في هذه المحنـــة ؟ قـــال: ž¤ÁùâÏ

á bqãÃ?$B 4?ã ã$èGó ¤!$r @ŠÏd.[١]

قال ابن القيم – رحمه الله –: ولهذا وصف الله تعالى بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه .... وأثنى على الصابرين أحسن الثناء وضمن لهم أعظم الجزاء، وجعل أجر غيرهم محسوبا وأجرهم بغير حساب، وقرن الصبر بمقامات الإسلام والإيمان والإحسان... فجعله قرين اليقين، والتوكل والإيمان والأعمال والتقوى، وأخبر أن آياته إنما ينتفع بها أولو الصبر وأخبر أن الصبر خير لأهله، وأن الملائكة تسلم عليهم في الجنة بصبرهم[٢] /ãø¤Ï»™â

á ÇÍÈ Í#$!$Ó<ø¤ã Nèïù ¤ž9 ¹ $JÎ.[٣]

وكذلك حينما فقد يعقوب – عليه السلام – بنيامين ابنه الآخر قال: ßÏ9§™@/A$%â

Ð$Î¤è¤qè ¼çRÎ $è$Ïd ÓÎ<ïÚí b&ª!$Ó¤ã @$Ïd ž¤Áù #Ø& Ï3Ýã¤R& Ï39

qßù è“$¤$Æ Ï bqãZ¤ã ÏÒ<¤$ #Ïqã4?ã 4"™'ƒ A$%r Ïãqã 4<q?r ÇÌÈ Ð$Å6 s¤$

Æ Ï bqã?r& $Ê•m šc qã?Ó¤m #Ïqãè2 ö?è¤Gø?«!$?è¤%ÇÌÈ Ò$à.

šc qß-è?ŵ $B «!$$Æ Ï ñ-ã&r «!$'<Î þÎ“ãr Óé è¤ã0&$JÎ A$%ÇÌÈ šú üÂÎ»g¤$

Ï$«f(ƒŵ ¼çRÎ «!$Ç-§ `Ï è¤Ý«f?ŵr ïŠÅ&r #Ïqã `Ï è¤Ý ii sFù è¤ç7d¤$ÓÍ7»ƒ ÇÌÈ

á ÇÌÈ brëÿ»3¤$ãö)¤$ŵÎ «!$Ç-§ `Ï.[٤]

إن للإيمان بالله والثقة واليقين به أكبر الأثر في النفس البشرية، إذ بذلك يكون لها العزاء عند حلول المصائب والحوادث، وتكون لها الطمأنينة والرضا عندها أيضا وبها يـــشمخ

---

(١) سورة يوسف: ١٨.

(٢) مدارج السالكين (٢/١٦٢ – ١٦٣).

(٣) سورة الرعد: ٢٤.

(٤) سورة يوسف: ٨٣، ٨٧.

المؤمن إلى قمة الإيمان فهذا يعقوب عليه السلام نشهد موقفه الإيماني العميق بلطف العناية الإلهية، وبالثقة بما يقدره الله، وباليقين بأن ما سيكون، هو الخير من الله وإنا لنشهد ذلك في قوله عند طلب أبنائه أخذ بنيامين معهم وهو لا يريد ذلك، ولكنه مضطر لحاجتهم إلى الميرة[١]: á ûüÏqº$$Bmœ& qèr $ãÏ»m îöz ª! $$u â :[٢].

وفي نهي يعقوب – عليه السلام - أبناءه عن اليأس من روح الله، يحدد يعقوب بهذه الآية نفسية المؤمن، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، فاليأس كفر بنعمة الحياة وخالقها؛ لأنه يشل حياة الإنسان وإرادته، ويجعله عاجزاً عن السير في ركابها، بينما الإيمان عدو اليأس اللدود، إذ هو الأمل والرجاء برحمة الله، مهما ادلهمت الخطوب، واكفهر الزمان، فإن مع العسر يسراً، وإن وراء الضيق فرجاً[٣].

٢/ عبودية التوكل على الله عز وجل مع الأخذ بالأسباب، وهذا ظاهر في وصيته لأبنائه حينما أرادوا الذهاب لمصر حيث قال: â {qèz‰ ‰ïº r 5> $/ .`Ï {qèz‰ ‰ w ÓÍ_6»ƒ A$%r â

ÅMèQ? ïø ã ÷ ŸwÎ ÅÃ$tø$ÉÎ) æÓ« `Ï «! $$Æ Ï NÅZã ÓÍ_øÉ$Br ƒ%ïŸG 5> ºqß ôÏ

ÓÍ_øßšc ‰Ÿ2 $B Nèqß‰Ïè•B& ß‰ øm ôÏ {qèzŠ $ 9r ÇÏÈ bqèÅ2 qÃ$$É@qGŠù ïø r

ø»Ÿ=æ $JÏ Ïöè r&! ¼ãƒr $g9Ÿ% >qàèƒ Ás ÿR 'Îƒ_ ‰n ŸwÎ æÓ« `Ï «! $` Ï OßZã

á ÇÏÈ šc qß=ƒ ÿw Ä $Z9$ŽYò2 & £Å»9r[٤].

يقول تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام أنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، حيث كان يخشى عليهم العين؛ وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم "وما أغني عنكم من الله من شيء" أي أن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه، فإن الله إذا أراد شيئا لا يخالف ولا يمانع[٥].

---

(١) القصص القرآني لعماد زهير حافظ ١٩١، انظر مع الأنبياء في القرآن، لطبارة ١٨٧.

(٢) سورة يوسف: ٦٤.

(٣) مع الأنبياء في القرآن، لعفيف طبار ١٨٩٥.

(٤) سورة يوسف: ٦٧ – ٦٨.

(٥) تفسير ابن كثير (٢/٦٣٠) .

فيعقوب عليه السلام يعطينا درساً بأن التوكل على الله يجب أن يصاحبه الأخذ بالأسباب والحيطة والحذر من الأضرار، فللطبيعة في سيرها نظام تأتي فيه المسببات على قدر الأسباب والمؤمن هو الذي يأخذ بأسباب النجاة مع الثقة والاطمئنان لما قدر الله فالاحتراس والحيطة والحذر تعطي النفس الإنسانية قوة وعزاء عند وقوع المصاب(١).

وفي قوله سبحانه: (٢)á šc qß-êƒ Ÿw Ä $Z9$ŽYò2 & £Å»9r ç»Y¯=æ $J‰ Ðtãe r¼! ¼çR‰r â

إثبات ما من الله به عليه من منزلة العلم مع النبوة وبالعلم يسلك العبد الطريق السليم، والمنهج القويم للسير في ركاب العابدين.

٣/ من عبوديته لربه رجوعه إليه عند المدلهمات والخطوب، حيث قال تعالى عن يعقوب عليه السلام حينما فقد ابنيه: (٣)á «¦ $'‹ Ïþ“ãnr ÓÉ ¦qàÕ& $JR‰ â.

والشكوى إلى الله – عز وجل – لا تنافي الصبر(٤).

٤/ ومن مظاهر عبوديته لربه سلامة قلبه وطهارته ومقابلة الإساءة بالإحسان، وذلك حينما طلب منه أبناؤه أن يغفر لهم ما حصل من خطأ منهم تجاه أبيهم. قال تعالى: b& $Ð=ù â

Ÿw $B «¦ $`Ï $Ñ=æ& þÕ‰ Nà6 ©@è& N9& A$% #Ž Ã/ ‰?Ó$ ¼ìÏgô_r 4?ã ç9)è ç÷Ï6è$ä!`

ðÝóGÕ& š’ ô™ A$% ÇÏÈ ûüÏÜ» z $Zä $R‰ $Z/qè$ $Z9 ðÝóGÕ$$R$/'»ƒ ¦qè% ÇÏÈ šc qß-è?

(٥)á ÇÏÈ Ð$ïmS$âqãóè$qè ¼çR‰ Þî Nä9

٥/ ما زال يعقوب عليه السلام ثابتا راسخا لم تزل قدمه في قضية العبودية لله رب العالمين حتى في آخر لحظة من حياته، وعند سكرات الموت وغرغرة الروح يذكر أبناءه بهذه القضية الكبرى في سورة البقرة، قال تعالى: bÎ Ó6»ƒ Ü qàè‹r ï‹Ï/ Ð¿Ü•‰ $ÍÍ 4œerr â

ŽØm Ø‰ ä!‰k à Nçä P& ÇÏÈ bqß-ó B OÇR&r ŸwÎ £ qß? Ÿx ù ûïè!$Ò9 4"Ü– $©$

---

(١) مع الأنبياء في القرآن، لعفيف طبارة ١٨٨.

(٢) سورة يوسف: ٦٨.

(٣) سورة يوسف: ٨٦.

(٤) مدارج السالكين (١٦١/٢).

(٥) سورة يوسف: ٩٦ – ٩٨.

7 í‡$/#ä m»9Ûr 7 g»9Ûƒ‰ZçèR ¢qæ‰ “ Ï‰è/ .`Ï brƒ‰Zçè $B Ïn<Í7Ï A$‰ Øð Ñ‡ÏJæ‰ > qàèf

.[1]á ÇìÌÈ bqÐÎóã¼ãÐtdr #‰Ïn°r $g»9Û ,»sÖÛr Ø©Šê»JÖÛr O¿Ü°•ð

أوصى يعقوب بنيه بهذه الملة، وهي ملة الإسلام لله ومن هنا يبين لنا حرص الأنبياء عليهم السلام على عقيدة التوحيد، وحفاظهم عليها وحبهم لها من بداية الحياة حتى الوفـــاة، حتى بعد وفاتهم أوصوا أبناءهم بها كقوله تعالى: [2]á ¾ïÎÉã 'Ïz<Ï$/ ÐJÎ. $g¬è_r â

ويأتي الجواب من قبل الأبناء للأب المحتضر â O¿Ü°•ð 7 í‡$/#ä m»9Ûr 7 g»9Ûƒ‰ZçèR ¢qæ‰

. á bqÐÎóã¼ãÐtdr #‰Ïn°r $g»9Û ,»sÖÛr Ø©Šê»JÖÛr

فهم عرفوا الإله (الحق) عن طريق آبائهم وأجدادهم حيث انفردوا بعبادة رب العالمين كما أنهم صرحوا بأمرين: أنهم سيكملون الطريق الذي بدأه الآباء والأجداد ويسيرون بـــه على النهج الذي تلقوه وورثوه دونما تحريف ولا تبديل وكذلك صرحوا أن العقيـــدة الـــتي حدثوها هي عقيدة التوحيد، وأن الدين الذي عرفوه هو دين الإسلام وأنهم لن يرضوا بـــه بديلاً فهم لأمر الله مستسلمون، ولحكمه خاضعون[3] .

---

(١) سورة البقرة: ١٣٢ – ١٣٣.

(٢) سورة الزخرف: ٢٨ .

(٣) انظر صفوة الآثار والمفاهيم للدوسري (٢/٣٩٦ - ٣٩٨) بتصرف .

عبودية يوسف – عليه السلام –

سمى الله في القرآن سورة باسمه "سورة يوسف"

وقد بينت السنة المطهرة مكانة يوسف – عليه الصلاة والسلام – في حديث رواه البخاري وغيره عن عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - عن النبي r قال: "الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام"(١).

كما حباه الله من الحسن والجمال ما جعله مضرب المثل في ذلك حتى وصفه رسول الله r بأنه أعطي شطر الحُسن.

فقد روى مسلم في صحيحه في قصة الإسراء والمعراج من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه – أن رسول الله r قال في حديثه عن عروجه إلى السموات العُلى "ثم عُرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت قال: جبريل قيل: ومن معك قال محمد. قيل وقد بُعث إليه قال: قد بُعث إليه. ففُتح لنا فإذا أنا بيوسف، فإذا هو قد أعطى شطر الحُسن"(٢) ولذا قال تعالى عن النسوة في المدينة لما رأينه: `tèr £åÝ‰ƒ¤ `èÖ%r ¼qŽ9œâ

.(٣)á Ò/ì. Ô=B ŭvî ‡‹»d ÞÎ #Ž3 0 #‹»d $B ‡ · »m

وقد ورد ذكر اسمه – عليه السلام – سبعاً وعشرين مرة، خمس وعشرون منها في سورة يوسف التي تحمل اسمه، والتي تفردت بذكر قصته من أولها إلى آخرها.

كما جاء ذكره في سورة الأنعام في ثنايا الحديث عن الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام قال تعالى: `Ïr @6 `Ï $Y‰d $mqÞr $Y‰d ˆx à2 >qàèfr ,»s Ô)Ÿ¤ $Z6drr â

.(٤)á ûüŽÅ¸s 3 “ ìqU 7Ï‹.r brñdr 4›qßr #ÑqßrSU q/r `»JøÑr Š¼#Š ¾ìÏ6‰fhê

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٣٣٩٠، ٤٦٨٨)، كما في فتح الباري (٥٩/١٢) .

(٢) أخرجه مسلم (٩٩/١) برقم (٣٣٠)، وفي (١٠١/١) برقم (٣٣١) .

(٣) سورة يوسف: آية ٣١.

(٤) سورة الأنعام: ٨٤.

فقد وصف مع سائر الأنبياء هنا بصفة الإحسان التي هي من المراتـــب العظيمـــة في الدين، ولا توجد صفة الإحسان إلا مع أناس سخروا أنفسهم لعبودية الله تبارك وتعالى.

وقد جاء في سورة غافر على لسان أحد المؤمنين وهو يعظ قومه: â r9)ﮔ ` !ä 2àN

`9 Óﮔ Ôﮔèš• =d #Œ) Ô⅓m ¾ïnï Nà2 ä!` $ﮔB Ô7 © 'Î ﮔ $Jù ÏM»ZﮔﮔÔ ﮔ `B ﮔ# ﮔqã

.[١]á ﮔqﮔ' ¾ﮔ%è/ .`B ª! $] èﮔ

أما عن عبودية نبي الله يوسف في سورة يوسف:-

١/ â r.‹ﮔ7 ﮔ ﮔF ﮔš• ‘ﮔ7 ãﮔèﮔB7 `B ﮔrﮔ/ﮔ$ﮔF n%Š/]Ï ãﮔÏO Rèﮔ J‌Fﮔ¼ ãﮔ •š rã?# ä#É

.[٢]á ÇÏÈ ÒŠÅm ÒŠÎæ 7/‘ bÎ) , »tãﮔ)r LìÏﮔ•ﮔ) @ﮔ% `B 7 ﮔq/& #?ã $gﮔB/& $J. >qﮔèﮔ

بينت هذه الآية أن الله تعالى اصطفاه واختاره عن غيره بما منَّ عليه من النبوة وما وهبـــه من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة، كما أعطاه الله نعمة تأويل الرؤى والأحاديـــث الصادقة [٣] "ãﮔÏO Rèﮔ J‌Fﮔ¼ ãﮔ •š rã?# ä#É ﮔèﮔ<" بأن وصل لهم الدنيا بنعمة الآخرة، أي جعلهم أنبياء في الدنيا وملوكا، ونقلهم عنها إلى الدرجات العلى في الجنة[٤].

قلت: هذه النعم والمنن التي امتن الله بها على يوسف عليه السلام سخرها لعبوديـــة الله، والقيام بمرضاته فنال سعادة الدارين.

٢/ ومما يدل على وحي الله إليه قوله سبحانه في شأن إخوته حينما أرادوا الكيد له ودبروا خطتهم الفعلية: â ù=ﮔ$ Œdﮔqﮔ ïn¾ r&ﮔdﮔãﮔb ﮔﮔèﮔqﮔ Î' î Š»6MÏ$ﮔﮔ ﮔÉ r&ﮔmﮔZ$)ﮔﮔï

9ﮔﮔ¤Zﮔ0 Î'ﮔﮔÏﮔN d»< # rdﮔN ﮔW „ﮔãﮔ brﮔ ÈÎÇ á أي أوحى[٥] إلى يوسف عليه السلام في

---

(١) سورة غافر: ٣٤.

(٢) سورة يوسف: ٦.

(٣) انظر: تفسير السعدي ٣٩٣.

(٤) تفسير النسفي ٥٢١.

(٥) الوحي هنا ليس المراد به وحي النبوة لأنه ما زال صغيراً، ولكن هو الهام ألهمه الله يوسف ألقاه في خاطره؛ وذلـــك كوحي الله إلى أم موسى â r&ﮔmﮔZ$ ﮔ<#ﮔ ﮔé ﮔq ›ﮔ bﮔ &ﮔ Æ'ﮔ<ïn ùﮔÏ ﮔMﮔã ﮔﮔ ﮔÏù ﮔÏ î ﮔ$ﮔﮔ ﮔrﮔ ﮔ/$Î' rﮔW القصص: ٧، انظر: القصص القرآني لصلاح الخالدي (١٠٠/٢).

ذلك الحال الضيق تطييباً لقلبه وتثبيتاً له، إنك لا تحزن مما أنت فيه فإن لك من ذلك فرجا ومخرجا حسنا وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليه، وقال ابن عباس: - رضي الله عنهما- ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك[1].

#Ø!r ¼ç‹Ï, GR r& $Yèÿƒ b& é¤ ã q1q#B 'ì›ò2 & ¥ïï?&•Bø/ žÇ Ï `Ï q1Žlo$ " ï‰ØA%r â /٣

#?ã ë÷ï‰ñ ª! $r Ï] ƒŠ$mF$È@ƒí›? `Ï ¼çJèïr ÇJ ö‹F$'Î # ß qäï $Y©B 7ï° ‹Ÿ2 r

$VïÃr $VðÃn ç»Y•?#ä ¥ÿ‹Ê& ÷=/ $Ï9r ÇËš c qß-ðƒ ŵ Ä $Z9$ŽYò2 & £Å»9r ¾íÞ&

á ÇËÈ ûüŽÅé ß8" ì‹ï U 7ï° ‹ .r[2].

حينما ألقى إخوة يوسف أخاهم يوسف – عليه السلام – في البئر جعل الله له من كل هم فرجا، حيث مرت أمام البئر قافلة تقصد مصر، فأرسلوا أحدهم ليأتي لهم بالماء من البئر، فلما أدلى دلوه تعلق به يوسف – عليه السلام - حتى خرج من البئر فرآه رجلاً ففرح به هذا الرجل فرحاً شديداً، وأتى به إلى رفقائه يعلن ابتهاجه قائلاً: يا للخبر السار "هذا غلام " فأخفاه هؤلاء بين أمتعتهم وجعلوه من بضائعهم التي يرغبون في بيعها.

باع أصحاب القافلة يوسف – عليه السلام - في مصر بدراهم قليلة؛ للتخلص منه خشية أن يدركهم أهله فينتزعوه منهم، وكان الذي اشتراه وزير الملك فأرسله إلى بيته وأوصى امرأته زليخا به خيراً وقال لها أحسني معاملته وأكرميه حتى تطيب له الإقامة معنا، "لعله ينفعنا" أو نتبناه "ونتخذه ولداً" وكما جعل الله ليوسف مقاماً كريماً في منزل وزير الملك جعل الله له أيضاً تصرفاً في ممتلكات الوزير ومكانة رفيعة في أرض مصر، وألهمه تفسير الرؤى والله قادر على تنفيذ كل أمر يريده ولكن أكثر الناس لا يعلمون خفاياً حكمته[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/٦١٢ – ٦١٣) .

(٢) سورة يوسف ٢١ – ٢٢.

(٣) مع الأنبياء في القرآن، لعفيف طبارة ١٦٠.

وكان إلقاؤه في الجب من المحن العظيمة التي مرت بيوسف – عليه السلام - في حياته "حيث يحتويه ظلامه – أي الجب –، ويشتمله سكونه محنة يمتحن بها هذا الفتى الكريم والله يمتحن عباده المخلصين بأنواع المصائب، ويفتنهم بضروب الآلام؛ ليكونوا أقدر احتمالاً على ما يلقى عليهم من مهمات الأمور وعظيماتها، ولم تكن محنة أبلغ في الألم من هذه المحنة التي ابتلي بها يوسف – عليه السلام - وربما كانت أخف لو وقعت على رجل خبر الحياة ولكن يوسف – عليه السلام - لا يزال صغيراً لا يعرف شيئاً، وربما كانت أخف لو أن يوسف – عليه السلام - كان قد اقترف خطيئة أو ارتكب إثماً، ولكن كان مبرءاً من كل عيب وخطأ ولو أن رمية يوسف كانت من غير إخوته، ومحنته جاءت من غير آصرته؛ لاحتملها قلبه واتسعت لها جوانب صدره[1].

قلت: حقاً لقد صدق نبي الرحمة محمد r حيث قال: أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل"[2].

[3]á ÇÈ ûüŽÅó 3 " ìø 7ï° < . r $VÈr $VÕãn ç»Ÿ?#ä ÿç‰@ ÷=/ $Ð9r â

"$Ð9 /÷= " يوسف "ç‰@" أي: كمال قوته المعنوية والحسية وصلح لأن يحتمل الأحمال الثقيلة من النبوة والرسالة، "$VÈr $VÕãn ç»Ÿ?#ä " أي جعلناه نبياً رسولا وعالماً ربانياً " < . r 7ï° ìø " ûüŽÅó 3 " في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها، وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علما نافعاً، ودلّ هذا على أن يوسف – عليه السلام - وفّى مقام الإحسان فأعطاه الله الحكم بين الناس والعلم الكثير والنبوة[4].

---

(١) قصص القرآن، محمد جاد المولى، ٨٠ بتصرف يسير.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤٨٨/٥٨) برقم (٢٧٨٣٨) تحقيق التركي وغيره، وأخرجه اسحاق بن راهويه في المسند (٢٧٥/٥) برقم (٢١٦١)، وصححه الألباني في الصحيح (٢٧٣/١) رقم (١٤٣).

(٣) سورة يوسف: ٢٢.

(٤) تفسير السعدي: ٣٩٥ – ٣٩٦.

٤/ ومن عبوديته لربه تبارك وتعالى تمام مراقبته له ونزاهته وعفته ألا ترى إلى امـــرأة العزيـــز تختلي بيوسف عليه السلام، وهي على قسط وافر من الجمال تعـــرض عليـــه مفاتنـــها وإغراءها وتطلب منه الاستجابة لرغبتها، وإن الوضع الذي كان عليه يوسف – عليـــه السلام - يستدعي مطاوعتها وتلبية رغباتها بلهفة واندفاع، وذلك؛ لأن يوسف عليـــه السلام في ريعان الشباب، وفي وقت تتفتح فيه النفس على الحب، وتضطرم فيه الشهوة، وفوق هذا فهو في دارها وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى – إن لم يطاوعها- أذاها فاجتمع لديه داعيا الرغبة والرهبة، وهو أيضاً لا يخشى أن تنم عليه، فإنها هي الطالبـــة الراغبة، وقد غلقت الأبواب وأبعدت الرقباء، وزيادة على ذلك فإنه كان مملوكـــاً لهـــا يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه أحد ذلك، وهذا مما يزيد الأنس والود وهو من أقوى الدواعي لمطاوعتها في رغبتها، ولكن أمام هذه الأمور جميعها أعرض عنـــها بدافع من واجب الشرف والإخلاص والوفاء لزوجها من أن تخونه لذا قال لهـــا: "A$% . " " #q¥B ` ¡ ôn& þÎt ¼çR) «t EèB

وحافز الوفاء كان مقروناً بالرقابة الإلهية، هذه الرقابة جعلت نفسية يوســـف - عليـــه السلام- تترفع عن هذا الإثم مع امرأة سيده.

وموقف آخر يرفع من منزلة يوسف عليه السلام وهو عندما تآمرت سيدته عليـــه مـــع صاحباتها لاستمالته، ثم تهديده بالسجن في حال رفضه فماذا كان موقف يوسف – عليه السلام - أمام هذا التهديد والوعيد؟ لقد أعرض عنهن بترفع وأنفة، وفضل حياة السجن المحفوفة بالذلة والهوان والعذاب، على العيش في كنف الترف والانغماس في الـــشهوات قائلاً مناجيا ربه[١]: A$% â ' ¼çR) ÓÍRqãß6ƒ $#Ï ¥<) ← m& ßÎ 9$#É‹ . [٢]á ïøÎ)

ولهـــذا قـــال الله عنـــه: â 2Ÿ‹ 7Ï° ZÏ ÇÎ ãŠ$ Z=ãŠ ä¡ þ• äÏ ÿ‹Ï ±ä$ $R‰Ï6ãŠ ô ¼çR) [٣]á šú üÏÃ=Ï‰Ï3ø9$

(١) مع الأنبياء في القرآن، لطبارة ١٩٢، انظر الضوء المنير على التفسير لابن القيم (٣/٥٣١) .

(٢) سورة يوسف: ٣٣.

(٣) سورة يوسف: ٢٤.

السوء والفحشاء، ولهذا لما علم إبليس أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص؛ استثناهم من شرطته التي اشترطها للغواية والإهلاك فقال: قال تعالى: [1] والإخلاص: هو سبيل الخلاص، والإسلام هو مركب السلامة والإيمان خاتم الأمان[3].

ولهذا قال ابن القيم: — رحمه الله — من آثر عاجل العقوبة والآلام على لذة الوصال الحرام هذا باب إنما يدخل منه رجلان:

أحدهما: من تمكن من قلبه الإيمان بالآخرة، وما أعده الله فيها من الثواب لمن أطاعه والعقاب لمن عصاه، فآثر أدنى الفوتين واختار أسهل العقوبتين.

والثاني: رجلُ غلب عقلُه على هواه فعلم ما في الفاحشة من المفاسد وما في العدول عنها من المصالح، فآثر الأعلى على الأدنى.

وقد جمع الله سبحانه وتعالى ليوسف الصديق، صلوات الله وسلامه عليه بين الأمرين فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الحرام قال سبحانه مبيناً حال المرأة: [4] فاختار السجن على الفاحشة، ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوته، وأخبر أن ذلك ليس إلا معونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه فقال: [5].

---

(١) سورة ص: ٨٢ — ٨٣.

(٢) سورة الحجر: ٤٢.

(٣) الضوء المنير على التفسير (٥٢٣/٣).

(٤) سورة يوسف: ٣٢ — ٣٣.

(٥) سورة يوسف: ٣٣.

فلا يركن العبد إلى نفسه، وصبره وحاله وعفته، ومتى ركن إلى ذلك تخلت عنه عصمة الله وأحاط به الخذلان[1].

قلت: ولهذا قال بعد قوله: [illegible] فهو بهذه العفة أصبح حصيناً رزيناً استحق أن يوصف بوصف العبودية والإخلاص.

٥/ بلوغ يوسف - عليه السلام - مرتبة الإحسان، والإحسان هو الإتقان، فهو محسن متقن أعماله تجاه ربه تبارك وتعالى، وكذلك هو محسن مع عباد الله ألا ترى حينما أخبر عنه قال: [illegible][3] أي: إنه كان محسناً في عمله عاملاً بطاعة الله تعالى وقال عنه أيضاً: [illegible][4].

وتأمل قوله تعالى في الآية " [illegible] " فما أحلى وقعها على النفس فهي بلسم لأصحاب النفوس السامية المحسنة وحافز لهم للاستمرار في كفاحهم في سبيل الإحسان، فالأفعال الحسنة التي يقدمها الإنسان لمجتمعه تكسبه علو المقام، وحسن الذكر وعرفان الجميل ممن يصيبهم إحسانه، وكل من أحسن عمله أي أتقنه نال الجزاء الأوفر من إقبال الناس على صناعته وثقتهم به، وتقديرهم له، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، هذه فائدة الإحسان في الدنيا، أما ثواب الإحسان في الآخرة فبينه قوله تعالى في تتمة الآية السابقة: [illegible][5] فثواب الآخرة أجل وأعظم من ثواب الدنيا[6].

حتى إخوة يوسف – عليه السلام – شهدو له بهذا الوصف حينما طلب منه حضور الأخ بنيامين في المرة القادمة؛ لأجل الميرة قال سبحانه حكاية عنهم: [illegible][7].

---

(١) الضوء المنير على التفسير (٣/٥٢٩ - ٥٣٠) .

(٢) سورة يوسف آية: ٢٤.

(٣) سورة يوسف آية: ٢٢.

(٤) سورة يوسف: ٥٦.

(٥) سورة يوسف آية: ٥٧.

(٦) مع الأنبياء في القرآن، لعفيف طبارة، ١٩٣.

(٧) سورة يوسف: ٧٨.

وكذلك في قصة الفتيين اللذين دخلا السجن مع يوسف -عليه السلام- وطلبا منـــه أن يفسر رؤياهما، وصفاه بالإحسان حيث قال تعالى حكاية عنـــهم: "

.

٦/ ومن عبودية يوسف — عليه السلام — لربه تبارك وتعالى حرصه على تقريـــر عقيـــدة التوحيد وتوضيحها للخلق، وهذا أمر جلي وذلك حينما دخل السجن وكان معه فتيان، ورأى كل من هذين الفتيين رؤيا وطلب من يوسف -عليه السلام- أن يعبر لهما هـــذه الرؤى.

قال تعـــالى:

بينما يوسف — عليه السلام — في السجن إذ جاءه فتيان سجينان معه يسألانه عن تعبير الرؤى، وقد عللا طلبهما منه تأويل الرؤيا بأنه محسن ذو أخلاق حسنة وتصرفات حسنة وسلوك حسن؛ لذا أنِسا به لإحسانه وصلاحه وتقواه.

ولما رأى يوسف — عليه السلام - لهفة السجينين على تأويل رؤياهما، طمأنهما على ذلك وأخبرهما بأنه سيقوم بما يريدان ويؤول رؤيا كل منهما عن قريب[٢]، ولكن أراد

---

(١) سورة يوسف: ٣٦ — ٤٠.

(٢) القصص القرآني، للخالدي (١٤٣/٢).

يوسف – عليه السلام - استغلال الموقف لنشر التوحيد فبدأ بإسناد العلم إلى الله وحده وهذا بداية التنبيه على الوحدانية، ونبذ الشرك والأصنام حيث بين لهم أولاً أن هذا العلم الذي حصل عنده هو من تعليم الله إياه[1] $Jaëu¾ïR ¼wÎ ¼ïiR$%-ëeP$èÛ $Ja‹ïÙf Ww A$% â

. á þîf ÓÍJ=æ $ËB $Jaï°Œ $Ja‹ïÙf b& @6% ¾ïÎfƒÚÎ

ولكن سأكلمكما بكلمة قبل أن أعبر لكما الرؤيا أعرفكما فيها عليَّ وعلى أهلي وأجدادي، وعلى ديني وإيماني، وعلى ربي ومعبودي، وأبين لكما ما عليه قومكما من الكفر والضلال، وأدعوكما إلى الحق[2]. قال تعالى: â :Œ°ïJ Ëæ $ËB $Jaï°Œ þîf ÓÍJ=æ $ËB $Jaï°Œ þÎ ' 7?¸ Mè¸ #ä/ï& ïÜ ïÚ•°Šïð

. á ãðÓ« `Ï ‹ $ 8Îõ9 b& $Z9 šc %. $B >qàè‹r ,» sðÎr

وقال: â :Œ°ï á brãâ„ Ww Ï $Z9$'?ãr $Zàã ‹ $ÐÙù `Ï š• ï°Œ ãðÓ« `Ï ‹ $ 8Îõ9 b& $Z9 šc %. $B "$Zàã ‹ $ÐÙù `Ï š• ï°Œ ãðÓ« `Ï [3]

وأراد بأولئك الذين لا يؤمنون أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم، وتكريرهم للدلالة على أنهم خصوصاً كافرون بالآخرة، وأن غيرهم كانوا قوماً مؤمنين بها، وهم الذين على ملة إبراهيم -عليه السلام-؛ ولتوكيد كفرهم بالجزاء تنبيها على ما هم عليه من الظلم والكبائر التي لا يرتكبها إلا من هو كافر بدار الجزاء، ويجوز أن يكون فيه تعريض بما مني به من جهتهم حين أودعوه السجن بعد ما رأوا الآيات الشاهدة على براءته، وأن ذلك ما لا يقدم عليه إلا من هو شديد الكفر بالجزاء، وذكر آباءه ليريهما أنه من بيت النبوة بعد أن عرفهما أنه نبي يوحى إليه بما ذكر من إخباره بالغيوب، ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه والاتباع[4] قول تعالى: "$B %. šc $Z9 b& $Îõ9 8 $ ‹ «

Oš Ïð•°Šïð ïÜ ïÚ#ä/ï& 'Ï Mè¸ ?7?¸ "

---

(١) عقيدة التوحيد للمكاوي، ٢٢١.

(٢) القصص القرآني للخالدي (١٤٤/٢).

(٣) سورة يوسف: ٣٨.

(٤) الكشاف للزمخشري، ٥١٥.

"qàèfr ,«sõÎr > " يعني أنه إنما حاز هذه الكمالات وفاز بتلك الكرامات؛ بسبب أنه اتبع ملة آبائه الكرام، وقال هذا ترغيبا لصاحبيه في الإيمان والتوحيد، وتنفيراً لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال وقُدّم ذكر تركِه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه؛ لأن التخلية متقدمة على التحلية[1].

"ÇÏÅ9$ÁÅ9$ÓÅ<Á»f" ثم ترقى أكثر في الدعوة، إلا أنه لم يطلب منهما طلباً صريحا ترك الشرك وإعلان التوحيد، بل وجه ذلك لهما بشكل سؤال في غاية الحب والمودة، وهو سؤال يقرع الفطرة: أيهما أفضل عبادة رب واحد أم التوجه لأرباب كثيرة[2] ؟ أي أرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر ولا تعطي ولا تمنع ؟ أم الله الذي له صفات الكمال (الواحد) في ذاته وصفاته وأفعاله فلا شريك له في ذلك من شيء[3] ؟

ثم لنتأمل عبارة يوسف – عليه السلام – "ÇÏÅ9$ÁÅ9$ÓÅ<Á»f" يظهر فيه أسلوب الداعية إلى الله، أسلوب نداء فيه لين، وتودد، وتلطف في مقام الدعوة إلى الله؛ لأن مناداتهما بوصف الصحبة من دواعي الإخلاص في النصح المواطئ للقبول عند المنصوح، وإضافة "صاحبي" إلى السجن؛ لأن السجن هو الذي نشأت فيه تلك الصحبة بين يوسف عليه السلام وبين الفتيين[4].

"$dqßϑÎ6Ïã ™ ÈÅ$JÖ‾ƒÈ wÎ) ÿÏµÏ?ùrß `Ï br&çÉ? $B" بين عجز الأصنام وضعفهما فقال: "$B br&çÉ? ÿÏµÏ?ùrß `Ï $dqßϑÎ6Ïã ™" أي من دون الله إلا ذوات أسماء لا معان لها من تلقاء أنفسكم وقيل: عنى بالأسماء المسميات: أي ما تعبدون إلا أصناماً ليس لها من الإلهية شيء إلا الاسم لأنها جمادات[5].

---

(١) تفسير أبي السعود (٣/٣٩٥) .

(٢) عقيدة التوحيد، للمكاوي ٢٢١.

(٣) تفسير السعدي، ٣٩٨ بتصرف يسير.

(٤) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم، لعبد العظيم المطعني (٢/١٢٩) ،

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥/١٩٢) .

ŵ Ä $Z9$ŽYò2 & £Â»9r ßáh)¤ßÛïß!$ 7 Ø°Œ ç$f) wî fÿ‰Çè? žv& •B& –ˆ žv) ßÛ3Ô¤ßêî"

. "šc qß=êƒ

قال الألوسي: – رحمه الله – "وجوز أن يكون سرد هذه الجمل على هذا الطراز لسد الطرق، في توجيه صحة عبادة الأصنام عليهم أحكم سد، فإنهم إن قالوا: إن الله قد أنزل حجة في ذلك ردوا بقوله: "?»Ùtß" ` ß $Kí ª! $A“R& $B" وإن قالوا: حكم لنا بذلك كبراؤنا ردوا بقوله: "–ˆ žv) ßÛ3Ô¤ßbî" وإن قالوا: حيث لم يترل حجة في ذلك ولم يكن حكم لغيره بقي الأمر موقوفا إذ عدم إنزال حجة تدل على الصحة، لا يستلزم إنزال حجة على البطلان ُردوا بقوله "ç$f) wî fÿ‰Çè? žv& •B&"، " Ø°Œ 7 " أي تخصيصه تعالى بالعبادة، "ßáh)¤ßÛïß!$" الثابت الذي دلت عليه البراهين العقلية والنقلية، "£Â»9r & ŵ Ä $Z9$ŽYò2 "šc qß=êƒ" أن ذلك هو الدين القيم لجهلهم تلك البراهين أو لا يعلمون شيئاً أصلاً فيعبدون أسماء سموها من عند أنفسهم معرضين عما يقتضيه الفعل ويسوق إليه سائق النقل"[1].

٧/ من عبوديته لربه – عليه الصلاة والسلام – تحكيمه لشرع ربه وثناء الله على فعله ورفع درجته في أعلى عليين قال تعالى: â . ‹ Ø°‹ šÎ ïÙ¨ b¥ . $B # ß‰qãä $RÒ ïÈ ’Îç$z& ‹ÐÚÜ

.[2]á ÒÓîæ Øüè " Ëè@à2 -ûür â$±®` B M»_ ‘Š ßùëR ª! $ä$±„ b& ŵ) Ä?îJ¤ß

٨/ موقف يوسف – عليه الصلاة والسلام – بعد تعريفه بنفسه لإخوته وبيان حالته أنه هو يوسف – عليه السلام –، بعد أن منّ الله عليه وعلى أخيه بنيامين، وضح لهؤلاء الأخوة أن ما حصل عليه هو بسبب تقواه وصبره قال تعالى: â # ß‰qãä Ìèùè $B Ìêîæ @d A$% â

---

(١) روح المعاني (٧/٣٣٤ - ٣٣٥)، والألوسي هو: محمود بن عبد الله الحسيني الالوسي، شهاب الدين أبو الثناء: مفسر، محدث، أديب، من المجددين من أهل بغداد، مولده ووفاته فيها، كان سلفي الاعتقاد، مجتهداً تقلد الافتاء ببلده سنة ١٢٤٨هـ وعزل، فانقطع للعلم، ثم سافر سنة ١٢٦٢هـ إلى الموصل، فالاستانة ومر بماردين وسيواس ،فغاب ٢١ شهراً، وأكرمه السلطان عبد المجيد وعاد إلى بغداد يدون رحلاته ويكمل ما كان قد بدأ به من مصنفاته، فاستمر إلى أن توفي، من كتبه (روح المعاني) في التفسير، وله غيرها . الأعلام للزركلي (٧/١٨٦) .

(٢) سورة يوسف: ٧٦.

ßø% ÓÅ&#‹»dr ß#ß'qãßø& A$% ß#ß'qãMRV(7Rã&(pø$% ÇÌÈ šc qêß»_ ÓÈR&øßî‹Å&r

(qø$% ÇÌÈ šú üÏÅ‹ó3ø$•ô&ß‹ÂßãŵØ$ c îù ÆÉÁƒr È–Gƒ `B ¼çRÎ $ZÞøã ª!$ Æ B

éÿýøƒ Pö‹ø$Ñ3æœ=ƒÎÞ?ŵ A$% ÇÌÈ šú üÏÜ» ,9$Zà2 bÎr$ZÞøã ª!$8•0#ä ßø)9‹!$?

.(١)á ÇÌÈ šú üÜÏm°S$Ñmö&qèr Ñã9ª!$

يستفاد من هذه الآيات ما يلي:

١/ أن يوسف – عليه السلام – نُصِر بتقواه وصبره(٢) قال تعالى: "ÆÉÁƒr È–Gƒ `B ¼çRÎ

%[•ƒø¼Ø©è¤r Ø$È–Gƒ `Br "**وقوله سبحانه** "šú üÏÅ‹ó3ø$•ô&ß‹ÂßãŵØ$ c îù

¾íÞ¤& à¦»/ Ø$Îb ÿçõóm qßù‹!$'?ã @@qGƒ `Br Ü ÅFtŵß ó m ôB çèéƒr ÇÌÈ

#Yø% øÓ« è¤aï ª!$Ø@è_ ø% " وهذا يدل على فضيلة التقوى والصبر وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر وأن عاقبة أهلهما أحسن العواقب(٣).

٢/ مقابلة يوسف إساءة إخوته السابقة – أي في حال صغره – بالإحسان إليهم والمغفرة لتصرفهم.

قال ابن كثير: – رحمه الله – "Pö‹ø$Ñ3æœ=ƒÎÞ?ŵ" يقول: أي لا تأنيب عليكم، ولا عتب عليكم اليوم، ولا أعيد عليكم ذنبكم في حقي بعد اليوم، ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة(٤) فقال "šú üÜÏm°S$Ñmö&qèr Ñã9ª!$éÿýøƒ" .

٩/ ذكر ابن القيم – رحمه الله – منزلة الأدب وعدّها من منازل " $fÎr ß7èR , $fÎ , $g-è_ ø% @ø% `B ‘»fææ@ƒÍÞ#‹»d " قال: "وقول يوسف لأبيه وإخوته " ÚÚ üÈGó$ " و لم يقل "أخرجني من الجب " حفظا

---

(١) سورة يوسف: ٨٩ – ٩٢.

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم (١٨٦/٢) تحقيق محمد حامد الفقي، الدار السعودية للنشر والتوزيع، دار المعرفة، بيروت – لبنان، لا يوجد تاريخ وطبعة.

(٣) تفسير السعدي، ٤١١.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦٣٦/٢) .

للأدب مع إخوته وتَفتَيا عليهم، أن لا يخجلهم بما جرى في الجب، وقال : "Nãî äl` r" ír7ø$` B " ولم يقل "رفع عنكم جهد الجوع والحاجة " أدباً معهم، وأضاف ما جـــرى إلى السبب ولم يضفه إلى المباشر الذي هو أقرب إليه منـــه. فقـــال: " ø“R b& ‰è/ .` B " فأعطى الفتوة والكرم والأدب حقه؛ ولهذا لم يكن كمال $ Þt îq=z) û#r ÓÍø ß»Üœ9$ هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام"[١].

١٠/ خضوع يوسف – عليه السلام – لله رب العالمين ودعاؤه وابتهاله إليه سبحانه بـــأن يثبته على الحق وسؤاله أن يحسن له الخاتمة في قولـــه: Å` ø7ø$` B ÓÍF•?#ä ‰ Ê ' * â : í•Åñ$ $<‰9$'î ¾Çír MR& Ç J öF$ Ï N°q»J ¡ 9$•Û$ù ï] ƒŠ%nF$Ê@ƒrÛ? `B ÓÍFõ=ãr .á ÇÈ ûüÅî»Á9$ ÓÍøÅ ør $VÎóÃ ÓÍ@q?

١١/ من أنفع وأجمع الدعاء، دعاء المرسلين، ومن ذلك دعاء نبي الله يوسف، كما جـــاء في قول الله تعالى: â : í•Åñ$ $<‰9$'î ¾Çír MR& á ûüÅî»Á9$ ÓÍøÅ ør $VÎóÃ ÓÍ@q? [٢] فقد جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب وإظهار الافتقـــار إليـــه، والبراءة من موالاة غيره سبحانه وكون الإسلام هو دين الله الحق وأن الوفاة عليه أجل غايات العبد وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، وفيه الاعتراف بالمعاد وطلـــب مرافقـــة السعداء في الآخرة [٣].

---

(١) مدارج السالكين (٢/٣٨٠ – ٣٨١) .

(٢) سورة يوسف: ١٠١.

(٣) الفوائد: ٢٥٩.

المبحث السابع

عبودية هود وصالح وشعيب وزكريا

- عليهم الصلاة والسلام -

المبحث السابع

عبودية هود عليه الصلاة والسلام

قبل أن نتعرف على هذا النبي – عليه السلام – نقف مع نسبه وأصله .

هو هود، بن شالح، بن أرفخشذ، بن سام، بن نوح عليه السلام ويقال إن هود هو: عابر بن شالح، بن أرفحشذ، بن سام، بن نوح.

ويقال: هود، بن عبد الله، بن رباح، بن الجارود، بن عاد، بن عوص بن إرم بن سام، بن نوح عليه السلام ذكره ابن جرير - رحمه الله -.

وكان من قبيلة يقال لها: عاد، بن عوص، بن سام، بن نوح، وكانوا عرباً، يسكنون الأحقاف وهي – جبال الرمل – وكانت (باليمن) بين (عمان) و(حضرموت) بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر.

ورجح ابن كثير - رحمه الله- أن نسب هود عليه السلام هو النسب الأول حيث قال: "والصحيح الأول"[1].

وهود عليه السلام من العرب، ففي صحيح ابن حبان عن أبي ذر t في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه: (منهم أربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر)[2].

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل – عليه السلام – العرب العاربة وهم قبائل كثيرة ومنهم (قبيلة عاد).

أما العرب المستعربة: فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام[3] أنزل الله في كتابه سورة باسمه "سورة هود".

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ٦٤.

(٢) اخرجه ابن ماجة (١٨٥/٢) رقم (٤٢١٨) والأجري في الأربعين (٤٥) برقم (٤٤) وابن حبان في صحيحه (٢١٣/٢) .

(٣) قصص الأنبياء: ٦٤.

وقد بعث الله هوداً نبيّاً لهداية قومه (عاد) الذين ضلوا طريق العبادة واتخذوا عبادة الأصـــنام من دون عبادة الله، وهم أول من اتخذ عبادة الأصنام بعد طوفان نوح – عليه السلام -[1].

كما قال الله تعالى بعد ذكر قوم نوح عليه الـــسلام:

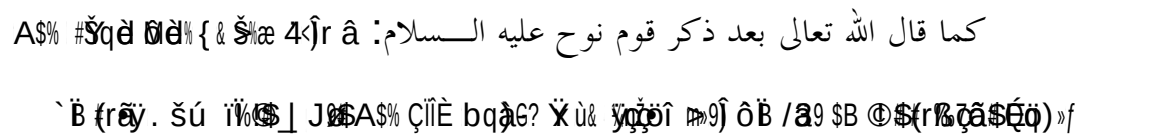

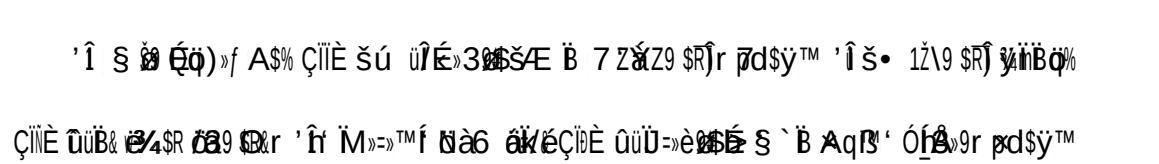

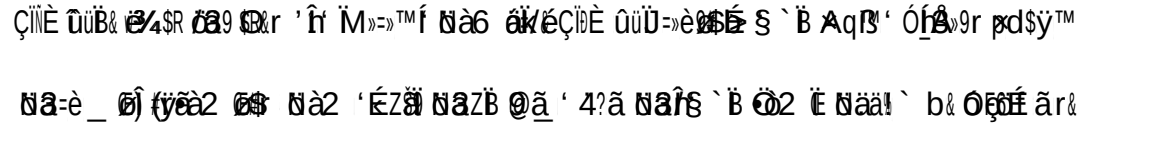

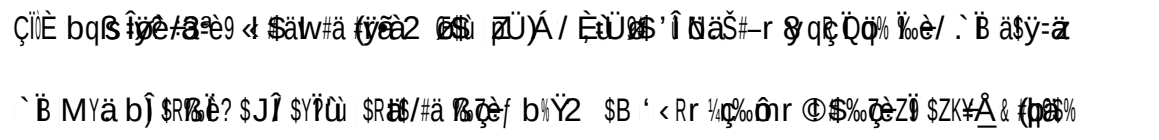

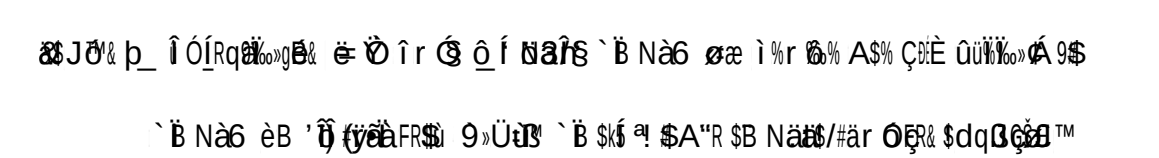

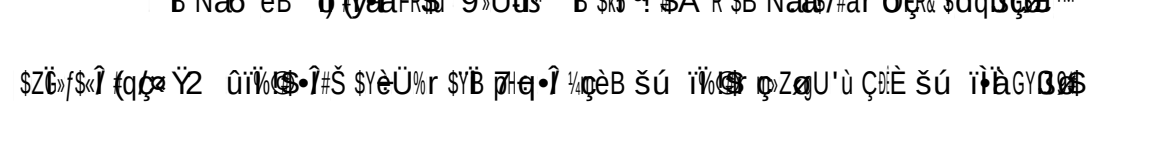

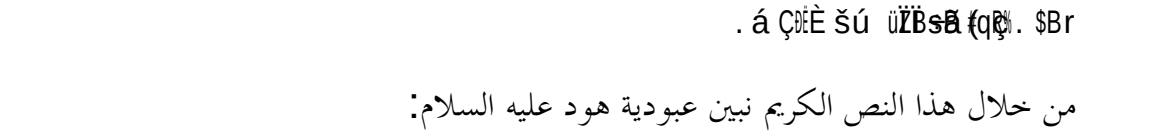

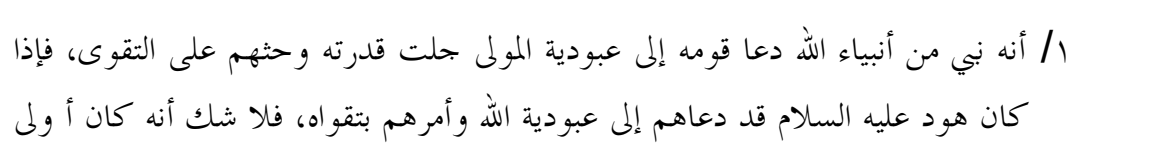

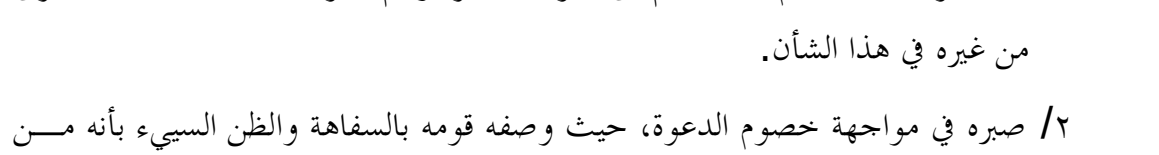

من خلال هذا النص الكريم نبين عبودية هود عليه السلام:

١/ أنه نبي من أنبياء الله دعا قومه إلى عبودية المولى جلت قدرته وحثهم على التقوى، فإذا كان هود عليه السلام قد دعاهم إلى عبودية الله وأمرهم بتقواه، فلا شك أنه كان أ ولى من غيره في هذا الشأن.

٢/ صبره في مواجهة خصوم الدعوة، حيث وصفه قومه بالسفاهة والظن السيىء بأنه مـــن الكاذبين، فكان رده هادئاً بعيداً عن العنف وبذاءة الألفاظ، بل اكتفى بنفي الـــسفاهة على أكمل وجه؛ لأن النكرة في سياق النفي تعم، ثم أثبت لنفسه الحقيقة التي حمَّلـــه الله إياها؛ ليبلغهم وهي الرسالة وهي تنافي كل صفات النقص التي ألصقوها به، فهو يقول

---

(١) أنبياء الله الكرام قصص وعبر من حياتهم، د. حنان قرقوتي ٥٥.

لهم ليس بي شيء مما تنسبوني إليه ولكنني في غاية ما يكون من الرشد والصدق[١] A$% â šú üÎÉ»3ø¢šÆ Ï 7 ZŸZ9 $RÎr ¯d$ÿ™ 'Î š• 1Ž\9 $RÎ ÿÏ¯Bq ` Ï ¢reÿ. šú ïÏ‰¢$_ J¢$ ، وقالوا عنه في مواضع أخرى من كتاب الله: â ‘ Ïl ÷Î â: ÷ÏÈ ûüÎ=»è¢$É§ ` Ï ÆAqÎ‘ ÓÍ¯Æ»9r ¯d$ÿ™ 'Î § ¢ÉqÎ)»ƒ A$% ÇÏÈ ßtÏ $Br $Štr ÑqÎR $<Ρ‰9$$Yè¢Šm ŸwÎ ‘ Ïl ÷Î â: ÷ÏÈ ûüÎqèŒÎ[٢] وقوله سبحانه: â ‘ Ïl ÷Î â ÆAqÎR bÎ â: ÷ÏÈ ûüÎqèŒÎ[٣] .[٤]

وبعد أن بين لهم مهمته ووظيفته أنه رسول من رب العالمين قال: â ÆAkÉ‘ Ñ ÑÎ6 ÑÎ»=»™Ì ÑÎ

وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغ، والنصح[٥] â ÆAkÉ‘ Ñ ÑÎ6 ÑÎ»=»™Ì ÑÎ والأمانة[٦]، والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبلغ وعدم الزيادة فيه والنقص منه ويستلزم أداءه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب وهو مع البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه، والشفقة عليهم، والحرص على هداياتهم، ولا يبتغي منهم أجراً، ولا يطلب منهم جُعْلاً، بل هو مخلص لله عز وجل في الدعوة إليه، والنصح لخلقه، لا يطلب أجرة إلا من الذي أرسله، فإن خير الدنيا والآخرة كله في يديه وأمره إليه[٧]، ولهذا قال تعالى: â ‘ Ïl ÷Î â #•ô‘ Ïl ÷Î â š” Ïl ÷Î â ‘ Ïl ÷Î â[٨].

٣/ تعجبهم – أي قوم هود – من كونه سبحانه أرسل إليهم رجلاً منهم. قال سبحانه: â ‘ Ïl ÷Î â ÑÎ ` Ï ÑÎ ÑÎ ÑÎ ÑÎ[٩].

---

(١) انظر تفسير أبي السعود (٢/٥٠٥) .

(٢) سورة الأعراف: ٦٦ – ٦٧.

(٣) سورة المؤمنون: ٣٧.

(٤) سورة هود: ٥٤.

(٥) سورة الأعراف: ٦٨.

(٦) تفسير ابن كثير (٢/٣٠١) .

(٧) قصص الأنبياء لابن كثير ٦٧ انظر تفسير ابن كثير (٢/٣٠١) .

(٨) سورة هود: ٥١.

(٩) سورة الأعراف: ٦٩.

ولهذا قالوا في موضع آخر [illegible] (١).

على خلاف بين المفسرين في المراد بهذه الآيات حيث ذهب ابن عباس — رضي الله عنهما — وكثير من المفسرين إلى أن هذا القرن هم عاد قوم هود(٢) للأدلة الآتية:

١- لمجيء قصتهم على أثر قصة نوح عليه السلام في غير هذا الموضع.

٢- ولقوله تعالى في سورة الأعراف: [illegible] (٣).

٣- لأن قوم هود هم أول الأمم الذين عبدوا الأصنام، بعد الطوفان، ثم لا خلاف أن عاداً قبل ثمود(٤) تاريخياً.

ويرى آخرون أنهم ثمود لقوله تعالى: [illegible] (٥)

قالوا وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة(٦) قال تعالى: [illegible] وهذا الذي قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم، كما في قصة أهل مدين أصحاب الأيكة، فإنه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات(٨).

---

(١) سورة المؤمنون: ٣٣ — ٣٧.

(٢) فتح القدير (٣/٤٨٢).

(٣) سورة الأعراف: ٦٩.

(٤) قصص القرآن، لابن كثير: ٦٧.

(٥) روح المعاني (١٠/٤١ — ٤٨) وتفسير السعدي ٥٥١.

(٦) سورة المؤمنون: ٤١.

(٧) الحاقة: ٦.

(٨) قصص القرآن، لابن كثير ٦٧.

٤- استهزاء قوم هود به – عليه السلام – وتحمله للسخرية في سبيل مرضاة الله وفي سبيل نشر العقيدة السليمة â (qã$% Šq%»ƒ $B ØA̲$YK $Br ÎŽÉz ÎŽ $Br ß$tBu ÎŽFÉ$bÉ ä#gÏ$Y ã` %Îq• š

وقال في ã$Br ß$tBu 7 9 ÎŽ3Bs ÏŽü šú ÈÎÎÇ bÎ) A¯qÿ$Ïz) Iã$Ï 7 1Žè/ Ù$â ä#gÏ$Z Î)Ýbá[1].

سورة الــشعراء: â (qã$% ™q#â ã$Yø &rãâM| &Q 9Ó ?ã` Ë` qãÀã üš ú ÈÎÎÇ á[2]

وقال في سورة الأحقاف â (qä9$% $YKØA̲ & ä#Ïù$Z ÙÏ$Z ÎŽJ$?è$%R $ bÎ) äYM|

. ÉA9$` B$ ‰ã»%üû á[3]

ولنتأمل سخريتهم في تلك العبارة "™q#â ã$Yø &rãâM| &Q 9Ó ?ã` Ë` qãÀã üš ú"

أي فإنا لا نرعوي عما نحن عليه، قالوا ذلك على سبيل الاستخفاف، وعدم المبالاة بمـــا خوفهم به عليه السلام، ولم يقولوا – أم لم تعظ- مبالغة في بيان قلة اعتدادهم بوعظه، كأنهم قالوا أم لم تكن من أهل الوعظ ومباشريه أصلاً[4]، وهذا دليل على شدة عنادهم وعتوهم، وقد عللوا ذلك بأن ما جاء به هود عليه السلام عادة الأولين يلفقـــون مثلـــه ويدعون إليه، أو ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا عادة الأولين الذين تقدمونا مـــن الآباء وغيرهم، ونحن بهم مقتدون فوعظهم في كلتا الحالين لا يؤثر علينا[5].

٤/ أن سخرية هؤلاء السذج بهذا النبي الكريم ما زاده إلا ثباتا ورسوخا في طريق الحق، فهو لا يكل ولا يمل في بيان الحق وتوضيحه للناس، بل وقد بين براءته من ما يعبدون قـــال تعالى: â bÎ) A¯qÿ$Ïz) Iã$Ï 7 1Žè/ Ù$â ä#gÏ$Z Î)Ýb %$A ÎŽpè ôÎ%$$@ $# ôÎ%$ (qåk$ 'Î /Î) üÛ

BÈ$$è ÎŽôé bqä ÈÎÇ Ï`B ŠrÎ% ¾ÏmÎ(Ï%$<Ÿr% 'Îr% dÎ$Y% ÎŽôé$ ÈÎÎÇ á[6].

بل ولا زال يبين ويكرر لهم القضية الكبرى قضية العبودية لله رب العالمين.

---

(١) سورة هود: آية ٥٣ – ٥٤.
(٢) سورة الشعراء آية: ١٣٦.
(٣) سورة الأحقاف، آية: ٢٢.
(٤) تفسير أبي السعود ٥٤، روح المعاني (٤٩٩/١٠) .
(٥) روح المعاني (٤٩٩/١٠) تفسير أبي السعود (٥٤/٥) .
(٦) سورة هود: ٥٤ – ٥٥.

ولهذا بين شيخ الإسلام – رحمه الله - أن جميع الرسل قد اتفقوا على دعوة الخلق إلى العبادة فقال: "العلم الحق هو ما أخبروا به – أي الرسل – والإرادة النافعة ما أمروا به، وذلك عبادة الله وحده لا شريك له؛ فهذا هو السعادة، وهو الذي اتفقت عليه الأنبياء كلهم، فكلهم دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له وذلك إنما يكون بتصديق رسله وطاعته؛ فلهذا كانت السعادة متضمنة لهذين الأصلين الإسلام والإيمان، عبادة الله وحده، وتصديق رسله وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله قال تعالى: á ÇïÈ ûüî™ëØ3Ø$ Æ =«ó Ÿ9r óÎgøî) @Aœšú ïÏ%©$£=«ó Ÿ=ù â[1].

قال أبو العالية[2] – رحمه الله -: هما خصلتان يسأل عنهما كل أحد يقال: لمن كنت تعبد ؟ وبماذا أجبت المرسلين "[3].

٥/ توكله على ربه تبارك وتعالى: qè ŵî þ/‡Š `Ï $B Oaîr 'îí «!$'?ã Mù@q? 'ñî â

á ÇÎÏÈ 8ÉóÏ Þ°ŽÂ 4?ã 'îí bî $kÉÏ¹ $ZÎ 8Ï{#ä[4].

قال ابن كثير: – رحمه الله – "وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر، ولا توالي ولا تعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له الذي بيده الملك، وله التصرف وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو ولا رب سواه"[5].

إن الرسالة حقاً هي توحيد الألوهية والعبودية من هو الإله المعبود إنه الله رب العالمين لا إله غيره ولا رب سواه، وكل ما سوى الله مخلوق فهو عبد الله الأصل أن يكون عابداً

---

(١) سورة الأعراف: ٦.

(٢) أبو العالية رفيع بن مهران أبو العالية الرياحي، ثقة كثير الإرسال مات سنة تسعين وقبل ثلاث وتسعين كما في التقريب (٢١٠) .

(٣) النبوات لابن تيمية ٨٦.

(٤) سورة هود: ٥٦.

(٥) تفسير القرآن العظيم (٢/٥٨٦) .

له خاضعاً لأمره بالعبادة. فالأصل أن كل إنسان مطالب بإفراد الله بالعبودية الحقة[١].

ومن تمام توكل هود عليه السلام على ربه أنهم حينما هددوه وحاولوا النيل منه، قال لهم بلسان الواثق بربه â ` Ïr ¾ ù Å ‹ r ' ï ? $ « ‹ r Ì Ï Ø ê $ ¥ Ø Z ? â r è á .

ومطلب هود – عليه السلام – من قومه أن يكيدوا له جميعا، وهم كثرة طاغية وهو فرد واحد، بأن يعملوا كل مكرهم وكيدهم وأن يقتلوه لو استطاعوا، ويؤكد ضمير الجمع بمؤكد (جميعا) أنتم وآلهتكم، ثم تحداهم بأن لا يتأخروا بكيدهم إياه (ثم لا تنظرون) ويدل هذا على استخفافه بهم وبأصنامهم، وثقته بأنهم إليه لا يصلون، فهو لا يخشاهم؛ لأنه متوكل على الله الذي يملك كل شيء ، وبيده نواصي عباده يفعل بهم ما يريد، لذلك قال تعالى: â) ? ' q ? @ M ã ? ' r ï « ‹ r Ì á [٢] وهكذا وقف هود عليه السلام أمام قومه غير مكترث بهم ولا خائف من كيدهم؛ لأن الله معه وكافية أمرهم[٣] â r B ` f G q @ @ ? ã ' ? $ ‹ « ù q ß m] ç ö Ÿ ï á [٤].

ومما يدل على قوة حجته عليهم، قوله سبحانه: â % ê (& Å ¥ K $ Z ï Ø ‰ ç ê ‰ % ¼ ç r ï ‹ ' ì % r ï Ø % A $ % Ç Ð È Ê û ü ï ‰ » Á 9 $ ` Ï B M Y ä b ) $ R ï Ø ê ? $ J ï $ Y ï ù $ R ä $ / # ä r ï Ø ç è f b ‰ Y 2 $ B N ä $ / # ä r Ó Ç R & $ d q Ï Ø ç è ™ ä J Ö & þ _ Ì Ó Í R q ä ‰ » g Ë & ê = Ø Ó î r Ó ô í Ï ä ` Ï B N à 6 ø æ á Ç Ð È š ú ï Ì G Y Ï ä ` Ï B N à 6 è B ' ) ( ÿ ê F R $ ù 9 » Ü Ï ` Ï B $ ¡ $ " R $ B [٥].

يتضح قوة حجة هود – عليه السلام - حين حَوّل آلهتهم إلى مجرد أسماء كأن ليس لها مسميات في عالم الحقيقة، ولا تبلغ أن تكون شيئا وراء الأسماء التي تطلق عليها هذه الأصنام لا دليل فيها على ألوهيتها، ولا تتضمن قوة تثبت بها وجودها[٦].

---

(١) انظر: القصص القرآني للخالدي (١/٢٤٠) .

(٢) سورة هود: ٥٦.

(٣) أنبياء في القرآن تركوا آثاراً د. هدى الطويل ٦٦ – ٦٧، رسالة دكتوراه.

(٤) سورة الطلاق: ٣

(٥) سورة الأعراف: ٧٠ – ٧١.

(٦) مع الأنبياء في القرآن، لطبارة، ٨٩.

٦/ استشعاره – عليه السلام – عظمة النعم والمنن التي امتن الله بها على قومه وأن هـــذه النعم لابد أن تسند لمن له حق الشكر عليها واستخدام هذه النعم بـــل وتـــسخيرها في طاعة وعبودية الله، وها هو القرآن يحكي واقع هؤلاء حينما أنعم الله عليهم بسابغ النعم فلم يؤدوا حقها

.(١)

وقال سبحانه وتعالى:

.(٢)

وقال أيـــضاً

.(٣)

قوة عاد قادتهم إلى البطش والتجبر والطغيان، قال تعالى: "

وقد جمعت سورة الفجر بين ثلاث أقوام غرتهم قوتهم وأبطرتهم وقـــادتهم إلى الطغيـــان والإفساد في البلاد وهم: عاد، وثمود، وفرعون قال تعالى:

.

(١) سورة الأعراف: ٦٩.

(٢) سورة الشعراء: ١٢٨، ١٣٥.

(٣) سورة هود: ٥٢.

لقد سار هؤلاء الأقوام الثلاثة: قوم عاد، قوم ثمود، قوم فرعون، في الطريق المحتوم خطوه خطوة، ومرحلة مرحلة وشوطاً شوطا، إنعام من الله عليهم تمكينهم من مظاهر القـــوة استخدام هذه القوة في الطغيان والاستبعاد لأهل البلاد، والإكثار من الفساد في أنفسهم ثم الإفساد لغيرهم، ونشره بين الناس تعذيب الله لهم بسبب طغيانهم وإفسادهم.

وكل دولة أو أمة تسير على نفس الطريق المحتوم بهذه المراحل والخطوات والمحطات تصل في النهاية إلى الهلاك والدمار [illegible][1].

وخلاصة القول هنا: نقول:

١/ أن هوداً عليه السلام من العرب.

٢/ بعثه الله إلى قومه عاد الذين ضلوا طريق العبادة وعبدوا الأصنام من دون الله.

٣/ فدعاهم هود إلى عبودية الله وحده لا شريك له، وقد واجه منـــهم العنـــاد والمكـــابرة والاستخفاف به، ورموه بعبارات تدل على سخافة عقولهم وجهلهم ومع ذلك صـــبر فكان الصبر خير معين له على القيام بعبودية الله.

٤/ اتصف عليه السلام بصفات العبد الصالح، والنبي المرسل، من الأمانة، والنصح والبلاغ وغير ذلك.

٥/ عبودية التوكل على الله كانت بارزة في شخصيته – عليه السلام - .

٦/ دوام شكره – عليه السلام – لله تعالى في كل حال.

---

(١) سورة الفجر: ١٤.

عبودية صالح – عليه السلام –

صالح – عليه السلام – من أنبياء الله الكرام، ومن العرب أيضاً، كما جاء في الحديث الطويل الذي جاء فيه ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه: "منهم أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر"(١).

وهو صالح، بن عبيد، بن ماسح، بن عبيد، بن حاجر، بن ثمود، بن عاثر، بن إرم بن نوح(٢).

بعث الله نبيه صالح عليه الصلاة والسلام إلى قبيلة ثمود، فصالح عليه السلام يعود بنسبه إلى ثمود جد القبيلة التي سميت باسمه، وثمود الجد يعود بنسبه إلى إرم بن سام بن نوح فكان عليه السلام من قبيلة ذات حسب ونسب، نشأ على الفضيلة، والإحسان، والصدق تميز بالحلم والعلم، والورع والتقوى، وسائر الصفات الحميدة، وحباه المولى الحكمة والإصابة في الرأي فكان قومه حينما يحتاجون إلى رأي صائب في مسألة ما يلجأؤون إليه ويأخذون برأيه وقد كان ذا شأن عند قومه قبل بدءه بالدعوة، ولكن بعد الدعوة(٣)، قال الله سبحانه تعالى عنهم: $Rèt/#ä ßÇèƒ $B ‰ÇèR b& $Z9g¥?& !‹»d ÿ©% #uqã_ëB $ZŠÏi MΥäß‰ ßî»Á»ƒ {qè% â: .(٤)á 5=ƒÐïø) $Rqãß? $ÆB ÷© '¯9 $ZRÎr

وقد حكى القرآن في كثير من سوره عن دعوة صالح – عليه السلام – قومه إلى العبودية للخالق جلا وعلا، قال سبحانه: {rßÇã$Éö)»ƒ A$% $[s≈¹ Nè{& ŠqÐ0 4‹Îr â: ÷Ï#ä Nà6 9 «!$è‰$R ¾ÍÉ»d Nà2Î$ `Ï pZÏ Nà6 ø$_ ß‰ ¼çÇöî ¤»9Î ôÏ Nà6 9 $B ©$ ßÎ)ÿÍêà2 ßè$ ÇÌÈ ÒŠÏ& ë#‹ã Nä‹ãÚù ãpÝÎ $dq¡ J?ÿr «!$ÇJ ö& þÎ @à2 Ù? $drâ‹ù bqçÅ¡z?r #YqÃë$gÏqÐ3 `Ï šc räÏ, Ð? ÇJ öF{$'Î Nà2 &Ð/r Ø$ã‰è/ .`Ï ä$ÿ=ãÚ ßã=è_

---

(١) سبق تخريجه في عبودية هود عليه السلام ٤١١.

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ٧٦.

(٣) انظر: أنبياء الله الكرام قصص وعبر من حياتهم، د. حنان قرقوتي، ٧٢، ٧٣.

(٤) سورة هود: ٦٢.

ûïŸ‰Ø$_| J¤ØA$% ÇÐÍÈ šú ïŸ‰ÅÿØÃ ÇÚ öF{$'Î {ö]è? ŵr «‹ $äŵ#ä {ÿêà2 ÆØ$u $?Ç¡ÇA$6É¤Ø$ $[s‡»¹ žc & šc qß-è?& ¼Ø¡ÆB `B#ä ôJŸ {qÿÊÒ6ÇÕ$ ûïŸ‰Ø$ ¾ïÈBq% Æ Ë {rž9ò6 FÕ'$ $Ñ) {ÿž9ò6 FÕ'$šú ïŸ‰Ø$A$% ÇÐÍÈ šc qžBs¤Ã ¾ïÎ ŸØÅÓé$JÎ $Ñ) {pÆ% ¾ïÎ$ `Ë @™éD $ŸÆ¤Ø$Î»Á»ƒ {qÆ%r ôÔĥ ‹Ð& ôã {ö©ãr p%$Y9$ {rã)èù ÇÐÍÈ šc rÆÿ». ¾ïÎ NÇZB#ä ü Ÿ‰Ø$ ÇÐÈ ûüÜŴ»_ ¼ÜÍ#Š 'Î {qß7ð 'ù æÿô_$Ø$ÐÐ©Ø« { 'ù ÇÐÈ ûüî™ëØ¤Ø$ `Ë MŸä bÎ $Ñ‰Ø$È? $JÎ bq7ïØ¤ žv `Å»9r ¼Ø¡9 ÅMés ÁRr 'Îr '!$™Í ¼Ø¡6 ©ó¤Ø« Ø¤)9 Ê©ö)»ƒ A$%r ¼Ø¡ã 4<qFù .(١)á ÇÐÈ šú üÛÃ»Y9$

نجد في هذه السورة — سورة الأعراف أموراً في غاية الأهمية عن قصة صالح —عليه السلام-:

١/ ذكر اسم صالح عليه السلام وأنه نبي من الأنبياء.

٢/ الدعوة إلى عبودية الله جلّ وعلا بصراحة ووضوح وهذا في قوله: Nà6 9 $B ©$ {r‰ç㤠"، فصالح عليه السلام أرسل إلى ثمود يدعوهم إلى كلمة التوحيد والإخلاص التي وحدت جميع الرسالات، ولهجت بها ألسنة الرسل وهي تلخيص للمنهج الرباني الواحد في العقيدة، والشريعة، والشعيرة والتبليغ؛ لأنها كلمة موجزة ترسم منهج حياة كامل، ثم يبين لهم أنه ليس لهم إله حق ينفع ويضر ويعطي ويمنع غير الله تعالى، وهو بهذا يهمس في أذهان القوم أن الآلهة التي يعبدونها من دون الله لا تصلح لأن تعبد لأنها لا تملك لنفسها فضلاً عن غيرها ضراً ولا نفعا ولا عطاءً ولا مدحا(٢).

وقال سبحانه وتعالى في موضع آخر * â {r‰çã$É©ö)»ƒ A$% $[s‡»¹ ¼Ø¡ {& Šqß0 4<Îr ôpÿqêÔêçrÆÿó-Õ'$ $ŽÏu Ôä•Jè©Õ'$ ÇÚ öF{$`Ë Nä'±R& qèl ¼ïÈBq% Æ Ë /Å9 $B ©$ (٣)á è‹ÆÅ è ƒ‡% 'Îr bÎ ïnØ)

حيث أضاف صالح عليه السلام إلى القضية الكبرى قضية العبودية قضية أخرى وهي النعم التي أنعم الله بها عليهم، حيث أنشأهم من الأرض،

---

(١) سورة الأعراف: ٧٣ — ٧٩.

(٢) حوار الأنبياء مع أقوامهم ١٧٥.

(٣) سورة هود: ٦١.

واستعمرهم فيها، فليستغفروه ثم يتوبوا إليه فربه قريب مجيب، وهذا فيه وعد ووعيد لأنهم إن فعلوا ذلك فذلك من قبيل الوعد، وإن أعرضوا فهو من قبيل الوعيد[١].

قلت: ومن خلال هذه الآية تتضح عبودية صالح عليه السلام فهو كثير التوبة والاستغفار والتضرع، والابتهال، والدعاء من المولى جلّت قدرته، فهو قريب مجيب، ولذا لما دعا الله أن يؤيده بآية تدل على صدقه في نبوته استجاب سبحانه دعاءه فقال: â dÉÍ¾ $R%è

$ «ɨ 9 6à ßN ä‹ù ß# ä‹ù ßN ä‹ ã ßN ëè

.[٢]á ÇÈlÈ ÒŠÛ%

وكانوا هم الذين سألوا صالحا أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر، فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح - عليه السلام - العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح عليه السلام إلى صلاته، ودعا الله فتحركت تلك الصخرة، ثم انصدعت عن ناقة جوفاء، وبدأ يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا[٣]، فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً، ومنظراً هائلا، وقدرة باهرة، ودليلاً قاطعا وبرهاناً ساطعاً، فآمن كثير منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم؛ ولهذا قال â ßÌ ¦qÃ-àù â á $Ì ¦ [٤] أي: جحدوا بها و لم يتبعوا الحق بسببها[٥].

اتضح أن هذه الناقة بينة من ربهم، وأنها ناقة الله، وفيها آية منه ومن هذا الإسناد نستلهم أنها كانت ناقة غير عادية، أو أنها أخرجت لهم إخراجا غير عادي، مما يجعلها بينة من ربهم، ومما يجعل نسبتها إلى الله ذات معنى ويجعلها آية على صدق نبوته.

٣/ تذكير قوم صالح – عليه السلام – بالنعم التي امتن الله بها عليهم، وقد جعلهم خلفاء من بعد عاد، وبوأهم في الأرض يتخذون من سهولها قصورا وينحتون الجبال بيوتا، فما

---

(١) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس ١١٩.

(٢) سورة الأعراف: ٧٣ .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/٣٠٥) .

(٤) سورة الأعراف: ١٠٣

(٥) قصص الأنبياء، ٨٠.

أجدرهم أن يذكروا آلاء الله فيشكروه، وما أحراهم أن يبتعدوا عن كل ما لا يليق فلا يعثوا في الأرض مفسدين.

وقال سبحانه وتعالى في موضع آخــــر â bqãŽ#ä $B ’Î bq’Ÿd $Y»ä#B üšú ÇÊÍÏÈ ’Î Z_»M,

Çä Ò r$àÎ ß Ä r$ã bq Ä $ È r Ç ÎÍ È Ï Ò d Ì $ Ä bq Ä 'B E Ö $ ÷ ø ø $ Y q ä ø à Ö è Ï ÎÈ Ç

$uäàq ($ ® r&Û Î qã È Ç ÎÈ á[1] فقد ذكرهم بهذه النعم التي تستحق الشكر والثناء على من أنعم هذه النعم، فأمرهم صالح عليه السلام بطاعة الله وحده وتــــرك طاعــــة المــــسرفين المفسدين الظالمين من كبرائهم وساداتهم قال تعــــالى: â ŸwÎ Ü ãà (qãè Ï Ü è B$Ï Î Ò û Ç ÎÈ

$ G ù ’Î ÏÎ br& ’Î $ ø ùà ’Î ÷ r ŸwÎ Ó áð bq Ç ÎÈ á[2].

قلت: كان الأولى والأحق بهؤلاء القوم أن يُسَخِّروا قلوبهم وألسنتهم وسائر جوارحهم في عبودية الله تعالى؛ لأنه سبحانه سخر لهم ما في الأرض من النعم العظيمة، الجــــسدية، والمالية والعمرانية، والحضارية.

٤/عبودية الصبر التي تحلى بها نبي الله صالح عليه السلام.

وذلك حينما دعاهم إلى عبودية الله تعالى، وذكرهم بنعمة، ونهاهم عن طاعة المــــسرفين المفسدين قال تعالى: â ((#þqä9$ JR) |MR& $B `Ï B (#þqä9$ `Ï ¡ ß-Ï î û ÇÊÍÌÈ $B |MR& ŸwÎ ³ 0 Ž ÷ Wï B $ Y s Ù Ñ N

$ ó/È br& $ Z ä `Ï B `Ï B ÉÎ) $ ÏB Ï Š Ä t ë û Ç ÎÈ á[3] أي إنما أنت ممن سحرت عقولهم فهم يهرفون بما لا يعرفون، كأنما الدعوة إلى الله لا يدعوها إلا مجنون، ومما يدل على صبره أيــــضاً: إصرارهم على العناد، والتمادي في الطغيان واستمساكهم بعبادة أوثانهم، وقالوا له: إنك قد خولطت في عقلك وضاع صوابك، وما نظن إلا أن أحداً سلط عليك شــــيطانه، أو أعمل فيك سحره فأصبحت تهرفُ بما لا تعرف، وتنطق بما لا تفقه فلــــست إلا بــــشراً مثلنا وما أنت بأشرفَنا نسبا، أو أفضلنا حسبا أو أوسعنا غنى وجاها، وفينا من هو أحق

---

(١) سورة الشعراء: ١٤٦ — ١٥٠.

(٢) سورة الشعراء: ١٥١ — ١٥٢.

(٣) سورة الشعراء: ١٥٣ — ١٥٤.

منك بالنبوة، وأجدر بالرسالة فما حملك على انتهاج هذه الطريق وسلوك تلك السبيل إلا رغبتك في تعظيم نفسك وتطلعك إلى الرياسة على قومك[١]!

ومع كل هذه العبارات الساذجة إلا أن صالحاً عليه السلام لم يناقشهم بلجاج وشـــتام، بل بيّن لهم مهمته ووظيفته وواجبه تجاه خالقه.

٥/ عبودية التوكل التي تحلى بها صالح – عليه السلام –، وهذا هو منهجه ومنـــهج ســـائر الأنبياء من قبله ومن بعده، قال تعـــالى: ﴿ ﴾.

ومما يدل على توكله على ربه تبارك وتعالى اعتقاده بأن الله سيحميه من كيد الأعداء وأنه ناصرهُ ومؤزره ومما يدل على ذلك قصة الرهط التسعة الذين حاولوا قتله: ﴿ ﴾.

[٢] ﴿ ﴾.

(١) قصص القرآن، محمد جاد المولى ٣٢.

(٢) سورة إبراهيم: ١٢ – ١٤.

.[1]

٦/ يستفاد من قوله

.[2]أن الطيرة شرك، وذهاب ذلك يكون بالتوكل على الله.

الطيرة هي: التشاؤم بالطيور والأسماء والألفاظ والبقاع والأشخاص[3].

وقوله " قالت ثمود لرسولها صالح – عليه السلام -اطيرنا بك وبمن معك، أي تشاءمنا بك وبمن معك من أتباعنا، وزجرنا الطير بأنا سيصيبنا بك وبهم المكاره والمصائب، فأجابهم صالح – عليه السلام - فقال لهم: " أي ما زجرتم من الطير لما يصيبكم من المكاره عند الله علمه لا يدري أي ذلك كائن، أم ما تظّنون من المصائب أو المكاره أم لا ترجونه من العافية والرجاء والمحاب.

" يقول: بل أنتم قوم تختبرون، يختبركم ربكم إذا أرسلني إليكم أتطيعونه فتعلمون بما أمركم به فيجزيكم الجزيل من ثوابه أم تعصونه فتعملون بخلافه فيحل بكم عقابه[4].

فبين صالح – عليه السلام - لهؤلاء عقيدة التوحيد في التطير كما أن الطيرة شرك؛ لما فيها من تعلق القلب على غير الله وسوء الظن به، وأن علاج هذا التطير هو بالتوكل على الله تعالى[5].

---

(١) سورة النمل: ٤٥ – ٥٣.

(٢) سورة النمل: ٤٦.

(٣) الملخص في شرح كتاب التوحيد لفضيلة الشيخ د. صالح الفوزان، ٢٣٣، دار العاصمة للنشر والتوزيع ط الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٤) تفسير ابن جرير (٥٣١/٩) .

(٥) الملخص في شرح كتاب التوحيد ٢٣٣.

عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا "الطيرة شرك الطيرة شرك، وما منا إلاّ ولكن الله يذهبه بالتوكل"(١).

٧/ من تمام عبودية صالح عليه السلام لربه أن الله معه ناصره ومؤيده، ولذلك أنعم عليه ومن آمن معه بالنجاة من كيد الكافرين، وإهلاك المشركين بالله المكذبين برسوله، ولهذا قال في شأن التسعة رهط الذين دبروا الحيل لقتل صالح عليه السلام وأهله: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٢).

كما أخبر سبحانه أنه عذبهم بعد عقر الناقة بثلاث ليال، فأهلكوا بالصيحة والرجفة والصاعقة.

قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾(٣).

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(٤).

وقال في سورة فصلت: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾(٥).

---

(١) أخرجه بن أبي شيبة في المصنف (٣٩/٩) وأحمد (٣٨٩/١) (٤٣٨، ٤٤٠) والبخاري في الأدب المفرد برقم (٩٠٩) وأبو داود برقم (٣٩١٠) كلهم عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه _ .

هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، أبو عبد الرحمن من السابقين الأولين، ومن كبار العلماء من الصحابة، مناقبه جمة، وأمره عمر على الكوفة، مات سنة اثنتين وثلاثين، أو في التي بعدها بالمدينة . التقريب (٣٢٣) .

(٢) سورة النمل: ٥٠ – ٥٣.

(٣) سورة هود: ٦٥ – ٦٧.

(٤) آية: ٧٨.

(٥) آية: ١٧.

عبودية شعيب عليه السلام

شعيب "اسم النبي الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام الذي بعثه الله رسولاً إلى قـــوم مدين، وهو أحد أربعة أنبياء عرب، هم: هود، صالح، شعيب محمد r وكان بعض السلف يسمي شعيباً (خطيب الأنبياء) يعني لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته[١]، عن ابن عباس - رضي الله عنه – قال: كان رسول الله r "إذا ذكر شعيبا قال: (ذاك خطيب الأنبياء) لحسن مراجعته قومه[٢].

وقومه: أهل مدين قوم عرب، يسكنون مدينتهم (مدين) التي هي قريبـــة مـــن أرض (معان) من أطراف الشام مما يلي الحجاز، قريباً من بحيرة قوم لوط وكانوا بعدهم بمدة قريبة ومدين قبيلة عرفت بهم، وهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل[٣].

وكان أهل مدين كفاراً يعبدون الأيكة، أي الشجر الكثيف الملتف وقد حكى القرآن سوء تعاملهم ووقوعهم في الظلم مع الخالق ومع المخلوقين[٤] قال تعـــالى: â * r4<Îûï‰B

A$<ò6 Ü2Ø(qÝÃàZ? Ÿwr ¼çÞöî ⇒9Î ôÏB Nà6 9 $B ①$(r‰çã$Éö)»ƒ A$% $Ø èà ôè{&

(qèr& Üö)»ƒr ÇÑÍÈ Ÿ‹ïC Éöƒ >#‹ ã Nà6 øæ ⌈$%{& þÎr Ïè2 Nà6 1'& þÎ) b#"•Ü2Ø

ÇÚ öF{$ † Î(ÑÈ? Ÿwr Nèä$‹Ô& ¨ $Z9$(qÝ , Ï? Ÿwr Ÿ‹ó ÉØÎ šc #"•Ü2Ø A$‹ò6 Ü2Ø

(qØ% ÇÑÍÈ ã‹ÿt2 Nãøæ ⌈B& $Br ûüÏÏ‰sB OÉZà2 bÎ Nã9Ïöz «!$ÑÉ/ ÇÑÍÈ ûï‰Åÿã

š• RÎ (ã¯±$ $B $Ÿ°qØ& þÎ Ÿèÿ¯b& ⇐& $R‹Ø/#ä ‰çè ƒ $B 8Ïø¯b& š, èè? š• ê4= ¹ & Ü èà»ƒ

$‰í ÇZÏB Ó̲‰–'r 'îs `Ï ÏÉ 4?ã ÑZä bÎ Ôç‹ã'& Éö)»ƒ A$% ÇÑÈ ‰šÏ©9$⌈Šî Ü2ØMRÝ

$Br ÑèÜG Ÿ$B x»=ô ÑŸ$ÑB Nà6 9g⇐& $B 4<Î Nãÿ‰{ é⇐& ‰ƒÍé$Br $ZÏ¡ m

ÃÑB Nà6 7ŠÃã& þ‹$)© NãYÌ Ÿwr Ïö)»ƒr ÇÑÈ Ü Šé‹ÑÎr ÑèÇ? ïøã «!$ Ï ÑÎ ôÏ Ïè‹ÏÇ?

(réÿóÇ Ÿ$ ÇÑÈ ‰‹é7Î Nà6 ZÏ Ï qãÃÇ‰ $Br ã‹î» ¹ Pö⇐& šqè Pö⇐& ?qÇPö% >$ ¹ & $B

$Rÿr ÃqÃ? $ÏÏ #ZÑ. ç)ø $B Ü èà»ƒ (qØ% ÇÈ šrßr Ò‹m' † Îr bÎ ïøÎ (þÇ ÑÊNà6 /'

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير:١٣٩، ١٤٠.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره وعزاه للثوري – رحمه الله – ٢/٥٩٥.

(٣) قصص الأنبياء (١٣٩، ١٤٠).

(٤) المصدر السابق نفس الصفحة.

“ã& þ Ü‹ ‘& Éö) »ƒ A$% ÇÈ 9ƒì è Î $Zðã MR& $Br 7 »Y‹ •9 7 ëì‹ ‘ ŵö9r $ÿZ<è Ê $ZŠù 7 1Ž\9

ŧqè Jã$Ö) »ƒr ÇÈ Õ‹ îê bqè Jè? $JÎ ’ î ž c Ĵ $#ìôß Nàä!‘r qß3ê ƒB$ ‹ $ ` B Nà6 øæ

Ò É». qè ïÆ Br ïƒì ‘ã ï‹ îù ƒ ` B šc qß-è? $ô™ @Ü»ã ’ ð Nà6 ïR%3B 4?ã

$ZB ÷H•Î ¼çè B ŧqB#ä ûï‰ $ðèè $ZðU $Rèð& ä$ _ $Ð9r ÇÌÈ Ò Š‰‘ Nà6 èB ’ ð ŧ(ÿ?É? ð

ŵ& $kŽù ŧöZø ƒ Ò©b(. ÇÍÈ šú üÜÌ» _ NÜì»ƒš ’Î ŧqß 7ð ’ù è s ø 9$ŧqß-ß ûï‰ $N ‹ z &r

.(١) á ßqß0 ð‰è/ $J. ûï‰ Jÿ #‰èç

تتضح عبودية نبي الله شعيب عليه السلام من خلال هذه الآيات وغيرها من الآيات في غير هذه السورة أيضاً، ومن أبرز تلك الصفات:

١/ دعوة شعيب – عليه السلام – قومه إلى عبودية الله تعالى: " $ðèè Ò ì{ & ûï‰ B 4‹Îr

." ÿ»9Î ôÏ Nà6 9 $B ¢$ŧr‰çã$É ö) »ƒ A$%

٢/ كان عليه الصلاة والسلام حريصاً على نصح قومه وتوجيههم، فقد كان الرائد الأول في مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه، حيث كان قومه يكفرون بالله ويشركون به، إذ عبدوا الأيكة من دونه، وصاروا يبخسون الناس أشياءهم(٢)، قال تعالى: ÇÌÈ brŽÅ ‹ Nèqç-r & Nèqè. ŒÎr ÇÈ bqèÇó „Ä $Z9$’?ã ŧqèGøŒÎ ûï‰ $â

á(٣) وكانوا قطّاع سبيل يخيفون المارة، وكانوا من أسوأ الناس معاملة في هذه الأمور(٤) حيث جاءهم ودعاهم بالحكمة، والموعظة الحسنة، يريد لهم النصح والرشاد والسعادة في الدنيا والآخرة، وأكل المال الحلال، وبيّن لهم ما أعد الله للمؤمنين من الجزاء في الآخرة.

كما حذرهم أهوال اليوم الآخر، وموقف الحساب للخلق بين يدي الخالق جل وعلا وكيف أن للكافرين عذاب جهنم وبئس المصير، ثم دعاهم إلى الإصلاح في الأرض

---

(١) سورة هود: ٨٤ – ٩٥.

(٢) قصص القرآن، محمد جاد المولى: ١١٠ .

(٣) سورة المطففين: ٢، ٣ .

(٤) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير: ١٤٠.

بإعطاء كل إنسان حقه، وبيَّن لهم أن ما يفعلونه في تعاملهم التجاري مع الناس بإنقاص الكيل والوزن ما هو إلا جشع وأكل لمال الناس بالباطل، وسرقة أموالهم، كما نهاهم عن أن يبخسوا الناس أشياءهم؛ لأن ذلك يعد من الفساد في الأرض[١]، وكان يقول لهم، قال تعالى: ¼ çµ÷Ζ ÏiΒ Νà6 9 $Β ©! $#(r‰çãΕÇö)»ƒ Α$% $#Νèδ ôÏΒ{& üï‰Β 4‹Ïr * â :

Ðöƒ >#‹ ã Νà6 øæ ΡS %{& þÎr Ÿ2 Νà6 1‘& þÎ) b#"•Ïϑ Α$‹ò6 Ïϑ(qÝà)Ζ? ŵr

Νèä$‹©% ¨ $Ζ9$(qÝ , ?ŵr Ãó ÉϑŠc #"•Ïϑ Α$‹ò6 Ïϑ(qèÇÒö)»ƒr ÇÍÈ Ý‹ïC

.[٢]á ÇÍÈ üï‰Ãøã ÇÚ öΡ$ † Ï(ŵè? ŵr

ولما كان أهل مدين من المفسدين في الأرض، حذرهم رسولهم شعيب – عليه السلام – عن الإفساد في الأرض، وحثهم على طاعة الله وترك المنكرات[٣] بقوله في سورة الأعراف .[٤]á šú ïÏΒ OçFà2 bÎ Νä3©ÿz Νà6 Ï°É â

ولكن هذا الخير مقيد بشرط الإيمان بقوله: " šú ïÏΒ OçFà2 bÎ " .

وقيل المعنى: أنه يكون خيراً إن كنتم مؤمنين بالله وحده؛ لأنهم إن فعلوا ما أشار عليهم وهم مشركون لم يحصل لهم منها الخير؛ لأن مفاسد الشرك تفسد ما في الأفعال من الخير[٥]. ولهذا قال في سورة الأعراف أيضاً: brã ÃqèΡ ÏŒÂ è à6 Ï(rãè? ŵr â

.[٦]á $[_qÃ $gΡqà2r ¼ã Ï šÆ Β#ä ôΒ «! $#©ÿ™ ` ã šc r‰ÝÃ?r

٣/ تحقيق عبودية شعيب – عليه السلام – من خلال ردود قومه عليه حينما أسدى لهم النصح والتوجيه: -

---

(١) أنبياء الله الكرام، د. حنان قرقوت: ١٨٦.

(٢) سورة هود: ٨٤ – ٨٥.

(٣) انظر: أنبياء في القرآن تركوا آثار: ١٦٣.

(٤) آية: ٨٥.

(٥) التحرير والتنوير ٤٠/٢٤٥.

(٦) سورة الأعراف: ٨٦.

- أنه عليه السلام داعية للحق، حريص على الأمانة، والاستقامة في سائر أمور القوم ومـــا ذاك إلا لعلمه عليه السلام أن هذا سبيل للنجاح في الدارين ولهذا قـــدّم نفـــسه لهـــم باعتباره رسولاً أميناً صادقاً حريصاً على مصلحتهم وأمرهم بتقوى الله وطاعته، وطاعة رسولهم الذي بعثه الله إليهم .

.(١)á Ëqã‹Ûr ©Ø(qà?Ø Ç¡ÈÈ ûüÏ&?Aqr‘ Ùã9 ’ñ Ç¡ÈÈ bqà6?Ÿ& ë=æèÐ Ùç; A$% ðî â

- أن دعوته قومه لعبودية الله كانت بإخلاص منه لهم حيث قال لهم: ïøã Ùãèð& $Br â

. (٢)á Ç¡ÈÈ ûüÏ»èØÉ‘ 4?ã ŸvÎ “ Ìô& Ìî ©Ø& ôÏ

- في قوله سبحانه: b& ¤& $R¨Ø/#ä Ø&çè ƒ $B 8ÇÐR b& š, êêê? š• ê4=¹& Ü=æèà »ƒ (qØ% â

.(٣)á Ç¡ÈÈ Ø&Š©S$ÐŠÎÛØMRÝ š• R) (è¯±S $B $Y¹qÐ& Þî ©èÿR

يدل على أن شعيباً - عليه السلام – كان كثير الصلاة كثير العبادة لله.

قال ابن عاشور – رحمه الله –: فلما كانت الصلاة أخص أعماله المخالفـــة لمعتـــادهم جعلوها المشيرة عليهم بما بلغه إليهم من أمور مخالفة لمعتادهم، بناء على التناسب بـــين السبب والمسبب في مخالفة المعتاد – قصداً للتهكم به والسخرية عليه تكذيباً لـــه فيمـــا جاءهم به، فإسناد الأمر إلى الصلوات غير حقيقي، إذ قد علم كل العقلاء أن الأفعال لا تأمر، والمعنى: أن صلاته تأمره بأنهم يتركون، أي تأمره بأن يحملهم على ترك ما يعبـــد آباؤهم، إذ معنى كونه مأموراً بعمل غيره، أنه مأمور بالسعي في ذلك بأن يأمرهم بأشياء(٤).

وفي قصة شعيب – عليه السلام – بيان لأثر الصلاة في سلوك الإنسان، وذلك لما قالـــه قوم شعيب – عليه السلام -: Ø&çè ƒ $B 8ÇÐR b& š, êêê? š• ê4=¹& Ü=æèà »ƒ (qØ% â

.(٥)á (è¯±S $B $Y¹qÐ& Þî ©èÿR b& ¤& $R¨Ø/#ä

---

(١) سورة الشعراء: ١٧٧ – ١٧٩.

(٢) سورة الشعراء: ١٨٠ .

(٣) سورة هود: ٨٧.

(٤) التحرير والتنوير (١٤١/٥).

(٥) مع الأنبياء في القرآن: ٢٠٦.

لقد لاحظ قوم شعيب – عليه السلام - تأثير الصلاة على شعيب – عليه الســلام - وأتباعه كيف أنها غيرت أوضاعهم ؟ وأتت بهم إلى التحرر من عبادة غير الله، وتــرك الغش في المكاييل والأوزان، فكان أن تهكموا عليه بهذا القول؛ لأنهم في قرارة أنفسهم لا يريدون تغيير ما هم فيه من نِعَم، لقد غيرت الصلاة نفسية أتباع شعيب –عليه السلام- لأن الصلاة تهدف إلى صنع ضمير نقي في الإنسان، فتتحرك فيه مشاعر التقوى والمراقبة وتذكره على الدوام بيوم القيامة $Br #ÌÖtÆ ÍÉz ôÏB ÏM=Û ã $B <§ ÿRÆ @à2 ÏÆÉ?Pöf â

ãÛ=M ÏB `ÏB šq?ãÈ öq9 t/& $gY÷/ yyçZ÷/r #´‰B& #Y‰‹è/ á[١].

ولهذا كانت الصلاة تعصم من الخطايا، وتنهى عن الفحشاء، وتنقل الإنسان من هــذا العالم المائج بالفتن المفعم بالأوزار إلى رحاب الله؛ لهذا بيّن القرآن أثر الــصلاة بقولــه تعالى: â Î c$žç9 Ä t4 ÏøÆ?S 4 ã ÈQZÆ$Ÿ# ÿ óÌ ±$ã ÏÆ# 3ZÎ ì á[٢].

٤/ عبودية الصبر فقد رأينا ردود قوم شعيب – عليه السلام – كلها كانت تدعو للسخرية به، حيث سخروا به، وبصلاته، وكثرة عبادته، ثم وصفوه على سبيل الاستهزاء "Rî •š ÿVR|M$%# ÛÎŠ$D$9S©ÏŠ%"[٣] وقد جاءت الجملة مؤكدة بحرف (إن) و(لام القسم) وبصيغة القصر في جملة "Rî •š ÿVR|M$%# ÛÎŠ$D$9S©ÏŠ%" فاشتملت على أربعة مؤكدات، و(الحليم) زيادة في التهكم: ذو الحلم أي العقل و(الرشيد): الحسن التدبير في المال[٤].

قلت: هم وصفوه بهاتين الصفتين على سبيل الاستهزاء لكنها صفتان متحققتان فيه عليه الصلاة والسلام على سبيل الحقيقة.

ثم لنتأمل موقف شعيب – عليه الصلاة والسلام – من خلال هذه الآية.

إنه الأدب الجم والتواضع الكم، الذي جعل شعيباً لم تَبدُ منه جفوة أو قسوة، بل تلطف في جدالهم، وآثر استمالتهم باللين واجتذابهم بالرفق[٥].

---

(١) سورة آل عمران: ٣٠.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٥.

(٣) سورة هود: ٨٧.

(٤) التحرير والتنوير (٥/١٤٢) .

(٥) انظر: قصص القرآن، محمد جاد المولى: ١١٠.

- ظهور أثر عبودية شعيب عليه السلام من خلال قوله تعـــالى: " bÎ óÇ£ä‘& ÉQöq)»ƒ A$% â Nà6 9gR& $B 4<Î NâÿÏ% {éÞ& Rƒíé$Br $Z¡ m $%øí qZB ÓÍ–‘r ’Îû ` B p7ÝÉ 4?ã âMZä Ï‰ŠRéÏøÎr âMè©q?ïøã «! $# zÎ) þÅÏiq? $Br âMèÜGÕ$$B x»=ô ¹ M$zÎ) Rƒíé$Î qZã ".[1] á ÇÑÈ

" qZã Nà6 9gR& $B 4<Î NâÿÏ% {éÞ& Rƒíé$Br " يؤكد شعيب – عليه السلام - لقومه في هذا القول أنه لا يفعل ما ينهاهم عنه، فهنا درس للمصلح بأن عليه أن يُراعي في سلوكه أشد المراعاة كل كلمة وتصرف يصدر منه فالسلوك يؤثر أكثر من الكلمـــات، مهمـــا صدر من المصلح من خطب وحكم ومواعظ بليغة تستهوي العقول، فلن يكـــون لهـــا الأثر الفعال في نفوس مستمعيها إذا لم يكن قائلـــها أول العـــاملين بمـــضمونها، وأول المؤتمرين بأوامرها ونواهيها؛ ولهذا ذم الله قوماً أمروا الناس بالبر و لم يلزموا أنفسهم بـــه فقال: " ¨ $Y9$$brâ$Ò?& ".[2]

ثم ننتقل إلى الشطر الثاني في قول شعيب: " âMèÜGÕ$$B x»=ô ¹ M$zÎ) Rƒíé$Î " فرغبـــة شعيب – عليه السلام – هي رغبة مجردة لوجه الله بعيدة عن أي غرض مادي أو منفعة ذاتية، وهكذا كانت أهداف الأنبياء في مراحل التاريخ، وهذا ما جعل الفوز حلـــيفهم وهذه هي الطريقة التي يجب أن يسلكها المصلح؛ ليصل إلى النجاح وإرضاء ما يؤمن به من مُثل عليا[3].

- عبودية التوكل والإنابة في قوله " Ï‰ŠRéÏøÎr âMè©q?ïøã "[4] وقال في سورة الأعراف $kŽÏù Šqè¯R& $Z9 âqà $Br $kÈ]Ïƒ ª! $$Z8qè R Ïø)‰è/ Nà6 Ï=Ï ’Î $RÏøã Î) $YÉ. «! $# ’?ã â

(١) سورة هود: ٨٨.

(٢) سورة البقرة: ٤٤.

(٣) مع الأنبياء في القرآن: ٢٥.

(٤) سورة هود: ٨٨.

ûüŸr $ZY•/ ôxFùØ$Z/‘ $Zt©q?‹ $’?ã $¸Jtæ æÓ« @ä$Zš‘ ì År $Zš‘ ª $ä$±„ b& Ww)

.[1]á ÇÌÈ ûüÅ Ï»ÿØšöz MR&r ë¸s Ø Ÿ$ZÌöq%

(عليه توكلت) لا على غيره (وإليه أنيب) أي أرجع فيما أنا بصدده، ويجوز أن يكون المراد وما كوني موفقا لإصابة الحق والصواب في كل ما آتي وأذر إلا بهدايته ومعونته عليه توكلت وهو إشارة إلى محض التوحيد الذاتي والفعلي، (وإليه أنيب) أي عليه أقبل وأعود بنفسي في مجامع أموري، وإيثار صيغة الاستقبال على الماضي الأنسب للتقرير والتحقق كما في التوكل؛ لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار، ولا يخفى ما في جوابه – عليه السلام – من مراعاة لطف المراجعة ، والاستنزال والمحافظة على قواعد حسن المجاراة والمحاورة، وتمهيد معاقد الحق بطلب التوفيق من جناب الله تعالى، والاستعانة في أموره، وحسم أطماع الكفار وإظهار الفراغ عنهم، وعدم المبالاة بمعاداتهم[2].

- كان من تمام عبوديته لربه عز وجل أن لا يجعل الخوف من هؤلاء القوم يسلك سبيلاً إلى قلبه، بل كان لا يخاف في الله لومة لائم، وهذا يتضح من قوله تعالى: â Ÿ$Zžøã MR& $Br 7 »Y•d•9 7 ëd‘ ŸŸ9r $Ÿ‹ê Ê $ZŠÙ 7 1Ž\9 $R Îr Ãqà? $ÐB #Ž•Ÿ. ç) ÿR $B

’Îr žc Ï $#ÐÏ3 Nää!‘ r qß3ètƒ B$r ‹ $`B Nà6 øæ “ã& þÜd‘ & Éö) »ƒ A$% ÇÌÈ 9ƒèÎ

`B šc qß=è? $ô™ @Ü»ã ’Ñ Nà6 ÏR%3B 4?ã (qèJãŠQö) »ƒr ÇÌÈ Ø‹ïê bqèJè? $JÎ

.[3]á ÇÌÈ Ò Š‘ Nà6 èB ’Ñ (þçÉ?ôŠr Ò É». qèd ïÆ Br ïƒÌ ã Ò#‹ ã ï‹Ï Ïƒ

حيث قال لهم: من الأولى بالمراعاة والاعتبار والاعتزاز؟ أرهطي وعشيرتي أم الله رب العالمين؟ إنه يرفض ميزانهم وعرفهم الجاهلي القائم على اعتبار الموازين والقيم المادية الجاهلية التي تكرم العشيرة بحد ذاتها بدون نظر إلى ما يتوفر فيها من قيم وحقائق صحيحة صادقة ويدعوهم إلى الميزان الإيماني الصادق، الذي يزن الناس والأشخاص والرهط وزناً إيمانياً ويكرمهم على أساس ما يتوفر لهم من إيمان وهدى، يقول لهم:

---

(١) آية: ٨٩.

(٢) تفسير أبي السعود (٣/٣٤٤) .

(٣) سورة هود: ٩١ – ٩٣.

أيهما الأولى بالاعتزاز: أرهطي أم الله ربكم ؟ وكيف جعلتم رهطي أعز عليكم من الله؟ وكيف جعلتم الله ربكم وراءكم ظهريا ؟ ونسيتموه ولم تجعلوا له قيمة ولا اعتباراً[١].

ومما يدل على أنه لا يخاف في الله لومة لائم، قوله سبحانه حينما هددوه بالخروج من القرية أو أن يعود في ملتهم: 7Z_ì÷ Ø ¾ïÏBq% `Ï ¢rÇ9FÓ$ûï‰¶$_| J¤A$% * â ‰% ÇÈ ûüÏì». $Zäq9r& A$% $ZÉ=Ï 'Î bßqãG9 r& $Yf% `Ï 7èB ¢qÃB#ä ûï‰¶ Ï ¤è à»f ŠqãR b& $Z9 ãqÃf $Br $k¤Ï ª! $$Z8r R ¤) ‰è/ Nà6 É=Ï 'Î $R¶ãà ì) $7É. «! $'?ã $Y¢Ïl¤$ ûï/r $ZY•/ ¤Fì¤$Z/' $ZtÇq? «! $'?ã $JtÏè äÓ« @ä $ZŠ' ì Ár $ZŠ' ª! $ä$±„ b& ìW) $kŽÏ á ÇÈ ûüÅÉ»ÿ¤$Žz MR& ¢s ¤$ $ZÏq% .[٢]

- **الشبهة التي أثارها القوم تجاهه عليه السلام:**

ûüÎÉ»3¤$`Ï9 7ZÃR bÎr $Y¤ÏB ž³0 ¤vÎ MR& $Br ÇÈ ûïì-s ¡ 3¤$`Ï MR& $JR) ¢p% â ûüÎÉ»¤$`Ï MZä bÎä$J¡ 9$`Ï $Z¡Ï $Z¤ã ñÝÉÕ'ù ÇÈ .[٣] وشبههم هذه نظير ما وجهته ثمود لرسولهم صالح عليه السلام وغيره من سائر الأنبياء، وهكذا تشابهت قلوبهم في اتهاماتهم وزعمهم أن البشرية لا تصلح للنبوة، والله يختص برحمته من يشاء من عباده [٤] فإنهم يرفضون دعوة الرسل والمصلحين لمجرد صدورها عن إنسان مثلهم، وهم في هذا يدفعهم الكبر والعناد إلى الكفر، والاتهام والتكذيب ويبلغون في استكبارهم مبلغاً يجعلهم يتوعدون الرسول ويهددونه [٥] وهو تحدي المستهتر الهازئ المستهين، وهو شبيه بتحدي المشركين للرسول الكريم

---

(١) انظر: حوار الأنبياء مع أقوامهم في القرآن، ٤٣٩.

(٢) سورة الأعراف: ٨٨ – ٨٩.

(٣) سورة الشعراء: ١٨٥ – ١٨٧.

(٤) سورة الأنعام: ١٢٤.

(٥) سورة الشعراء: ١٨٧.

[illegible] [1] لقد غرهم طول إمهال الله عز وجل لهم مع وجود رسوله بينهم يعالجهم بكل وسائل الحكمة، والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، ويرون أنهم ممكنون في أرضهم[3].

- نجاة الله لوليه شعيب عليه السلام ومن آمن معه واستجابته دعاءه وتضرعه وابتهاله ومن معه، قال تعالى: [illegible] [4].

وقال أيضاً في إهلاكهم بالرجفة [illegible] [5]. أما في سورة الشعراء فقد بين تعالى أنه دمر قوم مدين بالظلة وسماهم أصحاب الأيكة: [illegible] [6].

ثم حكى القرآن تعذيبهم فقال [illegible] [7].

فبهذا يتبين أن قوم مدين هم أصحاب الأيكة – على الصحيح –[8] وهم الذين أهلكهم الله بالرجفة، التي نتج عنها الصيحة، وهي التي نتج عنها الظلة وكان عذابهم على ثلاث مراحل متعاقبة متدرجة:

---

(١) سورة الإسراء: ٩٢.

(٢) سورة الأنفال: ٣٢.

(٣) أنبياء في القرآن تركوا آثار ١٧٦.

(٤) سورة هود: ٩٤ – ٩٥.

(٥) سورة الأعراف: ٩١ – ٩٢.

(٦) الشعراء: ١٧٦ – ١٧٧.

(٧) سورة الشعراء: ١٨٩.

(٨) انظر: تفسير ابن كثير (٤٥٦/٣) قصص الأنبياء لابن كثير: ١٤٥ – ١٤٦.

المرحلة الأولى: الرجفة: حيث رجفت الأرض من تحتهم وتحركت بهم حركة شـــديدة وزلزلت بهم زلزلة قوية.

المرحلة الثانية: الصيحة، حيث نتج عن رجفة الأرض وزلزلتها وتشققها صيحة عاليـــة وصوت مرتفع مُدَوٍّ، وانفجار كبير أفزعهم وأرعبهم.

المرحلة الثالثة: الظلة، وهي السحابة البركانية الحارقة، المكونة من الدخان الزلزالي الذي تصاعد من زلزال الأرض وتشققها، والذي أعقب الصيحة المدوية والانفجار الكبير[1].

(١) انظر: قصص القرآن (٣٩/٢) صلاح الخالدي.

عبودية زكريا – عليه السلام –

زكريا نبي من أنبياء بني إسرائيل، قضى عمره في عبادة الله تعالى والدعوة إليه [١].

ومن أجل الأعمال التي قام بها، أنه كفل مريم ابنة عمران أم المسيح عليه السلام، والتي نذرت أمها وهي حامل بها لخدمة بيت المقدس على عادة أهل ذلك الزمان[٢].

وقد اصطفاه الله من بين بني إسرائيل بكفالتها لسعادتها؛ لتقتبس منه علماً جماً نافعاً وعملاً صالحاً؛ ولأنه كان زوج خالتها على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما[٣]، وقيل زوج أختها كما ورد في الصحيح (فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة)[٤].

قال تعالى: $]ÿ¤ø $d‰ZÏã ‰ ` r > #•ós Ïù¨Ÿ$ $ƒÌ.– $gßÿã Ÿ@ z Š $J=ä $ƒÌ.– $g=ÿ.r â

.[٥]á A$ ¡ ïm Îëóî â$±„ ` B äãæƒ ©$bÎ « $‰ZÏã ôÏB qè ÑM9$% # ‹»d Ÿ 9 4T& ãqëJ»ƒ A$%

فكان الخير والرزق من عند الله تبارك وتعالى.

كل هذا من غير كسب ولا تعب، بل رزق ساقه الله إليها، وكرامة أكرمها الله بها، فكان يسألها عن هذا الرزق، فكانت تسند النعمة إلى من أسداها عليها " $‰ZÏã ôÏB qè ÑM9$% " A$ ¡ ïm Îëóî â$±„ ` B äãæƒ ©$bÎ « $ [٦].

عندئذ تحركت في نفس زكريا الشيخ الذي لم يوهب ذرية، تحركت تلك الرغبة الفطرية في النفس البشرية، الرغبة في الذرية، قال تعالى: A$% ¼çƒ ' $ƒÌŸ2 – $ãŠ š• Ï$Zè â

ÑÍ$% qèr è3Í»=J¨$qçŠ$Yù ÇÌÈ ä$ã$!$ß‹ïœ š• RÎ)7ÚÎ Ÿƒ‰ š• R$©`B ' í ó=d é ‘

`B $ÑÎRr #Yq Ám r #%™r « $ `B 7J3Î $ÑÁ ã ó•ós‹Î 8žÅ;ã©$b& é #•ós Ïù¨$'Î ' ÁÃ

---

(١) انظر مع الأنبياء في القرآن: ٣١٣.

(٢) أنبياء الله الكرام: ٣٠١.

(٣) تفسير الطبري (١/٤٧٠) .

(٤) أخرجه البخاري برقم (٣٢٠٧، ٣٣٩٣، ٣٤٣٠)، فتح الباري (١٣/٢٢٣) .

(٥) سورة آل عمران: ٣٧.

(٦) انظر: تفسير السعدي: ١٢٩.

ª! $š• Ÿº‹ . A$% €Ü$ã ’Î«•Ø$ ç9Å6 Ø$ÓÍó=/ ß‰r ÜÐ=â ’íãqãƒ 4T& Ê‘ A$% ÇÌÈ ûüÅî»Á9$

#ÝØ‘ žvÎ Ø$ƒ& pW»=0 ¨ $Y9$OÏk 6 êžv& 7 ç/#ä A$% Ø/#ä Þk@èô_$Ê‘ A$% ÇÍÈ â$±„ $B Ø@èÿƒ

.[1] á ÇÍÈ ì» 6 ïÝY$ ÉÅ èØÎ ôîm r #ŽëÏÝ2 7/§•äÉ$

ومظاهر عبودية زكريا – عليه السلام – من النصوص السابقة:

١/ حسن ظنه بربه تبارك وتعالى، وعلمه بأن الله تعالى لن يرد سؤاله، وهو قد طلب الذرية في حال عجزه وكبره وعقر زوجه (إنك سميع الدعاء) .

٢/ كثرة دعائه وإنابته وتضرعه لربه وتذلـــله بين يديه .

٣/ أن له محراباً خاصاً لعبودية ربه فكان يجعله محل خلوته بربه ومناجاته وصلاته[٢].

٤/ بشارة الله له من قبل الملائكة بعبد صالح تقياً نقياً، (مصدقاً بكلمـــة مـــن الله وســـيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين).

أي مصدقاً بعيسى ابن مريم – عليهما السلام – وسيداً شريفاً في العلم والعبادة والحلم والورع (وحصوراً) أي ليس له رغبة في النساء اشتغالاً بخدمة ربه وطاعته ونبيـــاً مـــن الصالحين أي رسولاً من ربه إلى قومه ينبئهم عنه بأمره ونهيه، وحلاله وحرامه، ويبلغهم عنه ما أرسله به إليهم"[٣].

٥/ استجابة الله لدعائه قال تعالى في ســـورة الأنبيـــاء –r â ŸwÊ‘ ¼ç/‘ 2” Š$R Ø)ƒ$ÏÝ2

¼ç9 $Yós=ô¨ &r Ó•ós ƒ ¼ç9 $Zôdrr ¼ç9 $Zôf GÏ%$u ÇÌÈ šú üÏÍ°qè$Šöz MR&r #Šöu ’Îö<?

$Z9 ƒqè%Ý2 r $Ød‘r $ÜÎ‘ $YRqãèƒr Ï°Žö, è$’Î šc qãÌ» ¡ç ƒqè$Ý2 ÏGÎ) ¥ç_ ¦–

أي يبادرون إليهـــا :" Ï°Žö, è$’Î šc qãÌ» ¡ç ƒqè$Ý2 ÏGÎ) " [٤] á ÇÌÈ šú üÉÌ»z

---

(١) سورة آل عمران: ٣٨ – ٣٩.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/٤٧١) .

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (٣/٢٥٣، ٢٥٦) تفسير السعدي: ١٣٠.

(٤) سورة الأنبياء: ٨٩ – ٩٠.

ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركـــون فضيلة يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصة فيها[١].

وعنى بالدعاء في هذا الموضع العبادة كما قال: ويعـــني بقوله (رغباً) أنهم كانوا يعبدونه رغبة منهم فيما يرجون منه من رحمته وفضله (ورهبا) يعني: رهبة منهم من عذابه وعقابه بتركهم عبادته وركوبهم معصيته[٣]، وهذا فيه مظهر من مظاهر العبودية، خشوع يتبعه خضوع وذل وتضرع للخالق جلت قدرته.

٦/ لعلنا نتسأل ونقول ما الحكمة في دعاء زكريا – عليه السلام - ربه بأن يرزقـــهُ ذريـــة صالحة طيبة ؟ !

ويجيبنا القرآن عن هذا بعد وصفه لزكريا –عليه السلام - بالعبوديـــة، قـــال تعـــالى:

---

(١) تفسير السعدي: ٥٣٠.

(٢) تفسير ابن جرير (٨٠/٩) .

(٣) سورة مريم: ٤٨.

ø•ðÇ{qS îm b& ÑÍŽÕ) é r ÷'ù É≥ #•ó Ü ¾ ` B ¾ïBq% 4?ã l •ƒú ÇÈ $ƒ™ A$Š9] »=0

.(١)á ÇÈ $ƒÈ ãr

فكان طلبه الذرية الصالحة لأمر وغاية عظمى؛ لأنه لا يجد من يرث حكمتهُ ويضطلع بأمانة الدعوة إلى الله من بعده، ... إنه يخاف على الدين وهو يرى مواليه وأبناء عمومته، وأكثرهم من الأشرار، لا وازع عندهم ولا رادع لديهم،... فقد كانوا يتركون الشريعة ولا يتورعون عن نشر الفساد، وتغيير معالم الكتاب إن تركوا وشأنهم و لم يقم بينهم إمام عادل يسير على دربه ويتمشى على نهجه ويقيس الأمور بمقاييسه.

فبشره الله بـ (يحيى) وهل كانت رغبة زكريا – عليه السلام - إلا أن تبقى العقيدة قائمة حيَّة ؟ وهل اسم (يحيى) إلا ما يشير إلى حياة تلك العقيدة وحاملها من بعد حافظها – سبحانه وتعالى - .

لقد اختار الله اسم الغلام ليدل على استجابته لعبده في نجواه وليريه من آيات الاختيار الفريد الذي لم يسبقه اختيار في الأرض كلها ومنذ وجود البشرية حتى ذلك التاريخ(٢).

٧/ استجابته تعالى لزكريا – عليه السلام - عند ما طلب منه أن يجعل له آية.

وقوله: (Ÿ#ä þk@èô $É ' A$%) يقول تعالى ذكره: قال زكريا – عليه السلام -: يا رب اجعل لي علماً ودليلاً على ما بشَّرتني به ملائكتك من هذا الغلام عن أمرك ورسالتك ليطمئن إلى ذلك قلبي(٣).

فكانت الآية: ($ƒÈ ™ A$Š9] »=0 š Z $Y9$N3ê%) وجعلت مدة انتفاء تكليمه الناس هنا ثلاث ليال، وجعلت في سورة آل عمران ثلاثة أيام فعلم أن المراد هنا ثلاث ليال بأيامها وأن المراد في آل عمران أيام بلياليها(٤).

---

(١) سورة مريم: ١ – ١١.

(٢) قصص الأنبياء في القرآن الكريم بتصرف ٦١٥ – ٦١٨ لسميح عاطف الزَّين، ط السابعة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

(٣) تفسير ابن جرير (٣١٢/٨) .

(٤) التحرير والتنوير (٧٣/٧) .

فعلامتك لذلك ودليلك عليه أن لا تكلم الناس ثلاث ليال، وأنت سوي صحيح لا علة بك ولا مرض يمنعك من الكلام[١].

ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: â 7 /§•äö$ r #ZïŸ2 ãÏΩr ¨xÎ@b óÅ è©# ¨ÿ$ 6 ì» á[٢]

فاطمئن قلبه واستبشر بهذه البشارة العظيمة، وامتثل لأمر الله له بالشكر بعبادته وذكره، فعكف في محرابه، وخرج على قومه فأوحى إليهم أي بالإشارة والرمز (b& ãÏΩ ß¤qç7 ¡ Zo3ó ãr ±Ï‹$) ؛ لأن البشارة بيحيى في حق الجميع مصلحة دينية[٣].

٨/ هكذا عاش زكريا عليه السلام النبي الكريم حياة حافلة بالمآثر الفاضلة والمزايا الحـــسنة، فقد كان قنوعاً رضي النفس نقي الضمير[٤] من عباد الله الصالحين قال تعالى: â r-.¸‡$ ãr ¬zt 4Óª r ãÅ¤Š 4¨ $‹ ¨@ä B `ÏiΒ $9 Á »́ ÎsÜ ¡ ùú ÈÎÎ Ç á[٥].

---

(١) تفسير ابن جرير (٣١٢/٨) .

(٢) سورة آل عمران: ٤١.

(٣) تفسير السعدي ٤٩٠.

(٤) قصص الأنبياء في القرآن الكريم ٦١٣، سميح الزّين.

(٥) سورة الأنعام: ٨٥.

المبحث الثامن

عبودية أيوب ويونس

- عليهما الصلاة والسلام-

عبودية أيوب – عليه السلام –

أيوب – عليه السلام – إمام الصابرين وقدوتهم المضروب به المثل في الصبر على البلاء، وذكر الله نبوته في القرآن المجيد قال تعالى: 8yqçG4<Î $Zømr& $J. 7øÎ) $Zømr& $RÎ) â: á¤ŠÈr Å$6ÕYF{$ > qàèfr ,»sÕÎ)r @ŠÉ»JÕÎ)r OŠÙ•Ò)Î #<Î) $ZØmr&r ¾íï‰è/.Ì `¿ÍZ9$# .(١)á > q•&r

وأكثر العلماء على أنه من ذرية إبراهيم – عليه السلام – لقوله تعالى: 7tÒr â: ÇÑÌÈ ÒŠÎæ O‹Åm š•/‘ÌÎ) â$±®`Ì M»_‘Š ßùÉR ¾ïÌÌBö‰ 4?ã OŠÙ•Ò)Î $g»YØ#ä $ZÉf ãn Š¼ãŠ ¾ïÍf•Ê `Ìr @6‰ `Ì $Y•‰d $mqÇr $Y•‰d îx2 > qàèfr ,»sÕÎ) ÿ¼ä $ZÒdrr .(٢)á ÇÑÍÈ ûüÏÅ¡9$# “Ìø.Ï 7Ï°‹.r bräãdr á‹qãr #ßqãr šU q•&r `»JøÎ)r

ومن ذريته الضمير عائد على إبراهيم – عليه السلام –(٣)، وهو الراجح؛ لأن سياق النظم الكريم لبيان شؤونه العظيمة، من إيتاء الحجة، ورفع الدرجات، وهبة الأولاد الأنبياء، وإبقاء هذه الكرامة في نسله إلى يوم القيامة(٤) وهو اختيار ابن كثير – رحمه الله - .

وقيل إن الضمير عائد على نوح – عليه السلام –؛ لأنه أقرب مذكور وكذلك لأن الله ذكر في الآية لوط – عليه السلام – وهو ليس من ذرية إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ولكنه من ذرية نوح – عليه السلام - وهذا اختيار ابن جرير – رحمه الله - حيث قال (فلذلك وجب أن تكون الهاء في الذرية من ذكر نوح _ عليه السلام - ورجح هذا القول أيضاً ابن عطية في تفسيره وابن عاشورا أيضاً(٥) – رحمهما الله -).

قلت: ودخول لوط ويونس عليهما السلام من باب التغليب؛ لأن نوحاً – عليه السلام – ابن أخ لإبراهيم - عليهم الصلاة والسلام – والله أعلم.

---

(١) سورة النساء: ١٦٣.

(٢) الأنعام: ٨٣ – ٨٤.

(٣) تفسير ابن كثير (٢/٢١٠) قصص الأنبياء ١٨٠.

(٤) تفسير أبي السعود (٢/٤١٠) .

(٥) تفسير ابن جرير (٥/٢٥٦) تفسير المحرر الوجيز لابن عطية (٢/٣١٦) نفسير التحرير والتنوير (٣/٨٨)

وقد ذكر القرآن قصتة – عليه السلام – في سورتي الأنبياء وص قـــال الله تعـــالى:

¼ç9 $Zõf GÕ'$ù ÇÌÈ šú üÏq‰9$$ŠmöÆ MR&r ž'Ø9$$ÓÍ¡¡ B 'ô ¥ç/‘ 3' Š$R Øî šU q/&r * â

ûï‰Ï»èÙ 3' •ò2 Ïr $R‰Ÿ¤ ôÏ Bp#ô‘ õG$èB NG-¥Br ¼ã#d& ç»Y‹?#är ÐÆÊ `Ï ¾ïÎ $B $Y¥ø±3ù

. (١)á ÇÌÍÈ

قال ابن القيم – رحمه الله – "جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود لهم المحبة في التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته هو وفقره، ومتى وَجدَ المُبتَلى هذا كُشفت عنه بلواه، وقد جُرِّب أنه من قالها سبع مرات ولا سيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره " (٢).

قال تعالى: A#‹ ãr 5=ÁZÎ ß»Üæ±9$$ÓÍ¡¡ B 'ô ¥ç/‘ 3' Š$R Øî >q/& $R‰Ãõã ëÖÆÆ$ â

$ZÏ p#ô‘ õG$èB NG-¥Br ¼ã#d& ¥Ål $Y‹Ãdrr ÇÍÈ Ò#Ž¥Ÿr šÍ$/ @¡ FÆÆ#‹»d 7îô_ì ôÙ äÖ$ÇÍÈ

#ì$¹ ç»RÆ`r $RÎ ô ¥tB Ïr ¾ïÎ >îÕ$ $ÆÆÊ 8‰‹Î õé r ÇÎÈ É»7ÆÆ$'írT 3' •ÆÏr

.(٣)á Ò#r& ¥çRÎ ÆÃÈÆÆNèÏ

تتضح مظاهر عبودية أيوب – عليه السلام – من خلال هذه الآيات ومنها:-

١/ محنة البلاء الذي ابتلي به أيوب – عليه السلام – والظاهر أن نوع المرض الذي أصاب أيوب عليه السلام كان في غاية الشدة والوجع والألم، وليس ذلك بغريب(٤) فإن أشـــد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فقد ثبت في الصحيح أن رسول الله r قال: (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل).

٢/ عبودية الصبر وهي عبودية خاصة فريدة لشخص فذ، كيف لا ؟ وهو من حقق عبودية الضراء والسراء، قال تعالى في ثنائه على الـــصابرين â ÏŠÆÆ9$r Ïš™Ù7ÆÆ'Î ûïÎÉÁ9$r

---

(١) سورة الأنبياء: ٨٣ – ٨٤.

(٢) الفوائد: ٢٥٩.

(٣) سورة ص: آية ٤١ – ٤٤.

(٤) قصص الأنبياء القصص الحق ١٩٥.

r [1] وقال عنه: â [2] ويريد الله سبحانه وتعالى أن يجعله مثالاً للبشرية، فيبتليه بأعظم ابتلاء حتى يجعل منه ذلك القَبَس الوهّاج في الإيمان، وذاك المثال الرائع على المجالدة والصبر، ويكون الابتلاء بأعظم ضر يخطر على بال إنسان إذ يصيبه بماله وأهله[3].

٣/ وصف أيوب – عليه السلام – بصفة العبودية في سورة ص في مبدأ الحديث عنه وفي منتهاه ( ) [4] وقال في آخر الحديث عنه ( ) [5].

حيث كان أيوب – عليه السلام – صادق العبودية لله، وكان ما يأتيه من الله من ابتلاء يزيده عبودية لله ورضا بقدره وخضوعاً واستسلاما له، كيف لا يكون كذلك ؟ وهو نبي كريم عليه السلام، والأنبياء أكثر الناس عبودية وطاعة وخشية الله، ووصْفُه بالعبودية لله في سياق الحديث عن الابتلاء يدل على أن من حكمة ابتلاء الله لعباده بالبأساء والضراء تعميق عبوديتهم له، فالمؤمن المبتلى بالضر يزداد عبودية وخضوعاً لله عند ما يصبر ويحتسب ويقبل على الله، داعيا منيباً متضرعاً خاشعاً، وإن الله يحب العبد اللحوح في الدعاء[6].

٤/ عبودية التضرع والابتهال والدعاء والالتجاء إلى الله ( ) .

٥/ عبودية الإنابة والرجوع إلى الله تعالى، ولهذا جاء الثناء العطر عليه في قوله ( ) الذي كمل مراتب العبودية في حال السراء والضراء والشدة والرخاء، ( ) أي

---

(١) سورة البقرة: ١٧٧.

(٢) سورة ص: ٤٤.

(٣) قصص الأنبياء في القرآن، لسميح عاطف الزين ٣٧٨.

(٤) سورة ص: ٤١

(٥) سورة ص: ٤٤

(٦) قصص الأنبياء، للخالدي (٤/١٧ – ١٨) .

كثير الرجوع إلى الله في مطالبه الدينية والدنيوية كثير الذكر لربـــه والـــدعاء والمحبـــة والتأله[١].

٦/ حسن ظن أيوب عليه السلام بربه حينما التجأ له ورفع أكف الضراعة والابتهال متيقناً أن الله لن يرد سُؤْله.

٧/ الأدب في الدعاء من قِبل أيوب – عليه السلام – حيث قال: â ’ô B ¡¡Ï$Ó9$ æÜ»ß á[٢]

وقال أيضاً â B ¡¡Ï$Ó9$ Ø ž á[٣] ولم ينسب المرض الذي حل به إلى الله، وهذا في غايـــة الأدب مع الرحمن الرحيم، وغاية الإيمان بقضاء الله وقدره.

٨/ استجابة الله لدعائه: â $ù ÿMÒ G f ôZ$ 9qç¼ ù3 ±ÿYš $B $ ìî¾ B ` ÊÉ á[٤].

وقال تعالى: â r bÎ/ ƒ ð ¡ |¡ ó 7 $!ª Î ôØ ß ù Ÿ Ÿ2 © # ©! yγ ž d ³ r bÎ/ ƒ ð ¡ |¡ ó 7 Ž2 ä ù q$ á[٥] ولهذا قال الله عنه: â ã ?4 ä @ ä » ô ‰ ¡ ô Ç È á ˆ $ % ã Ž q > ô Ó $ S 3 ‘ /y ’ ô

B ¡¡Ï$Ó9$ æÜ»ß ž Á 5= r ã ‹ # A È Ç $ü ä Ù î ‰ ô _ ô î 7 d »‹ # ð F ¡ | @ / $ ¡ Ý Ÿ # r È Ç

á[٦] أني مسني الشيطان بنصب وعذاب: أي بتعب وضر[٧] في أهله ومالـــه، وكونـــه سبحانه ذكر أنه مسه الضر بدون تحديد يفهم منه أن الضر مطلقاً هنا عام شامل لكـــل بلاء وضرر نزل بأيوب والله أعلم.

٩/ المعجزة الإلهية التي تدل على تمام القدرة على رفع البلاء، فهو سبحانه إذا أراد أن يقول للشيء كن فيكون[٨]، ولهذا جاءت البشارة منه تعالى: â $ ä Ù î ‰ ô _ ô î 7 d »‹ # ð F ¡ | @

---

(١) تفسير السعدي: ٧١٤.

(٢) سورة ص: ٤١.

(٣) سورة الأنبياء: ٨٣.

(٤) سورة الأنبياء: ٨٤.

(٥) سورة الأنعام: ١٧.

(٦) سورة ص: ٤١ – ٤٢.

(٧) رياض البيان لمفردات القرآن، للشيخ أ. د. زكي أبو السريع ٣١٨، دار الحـــضارة للنـــشر والتوزيـــع، ط الأولى ١٤٢٥هـــ - ٢٠٠٤م.

(٨) انظر: معجزات الأنبياء، لعبد المنعم الهاشمي ٢٩٧، مكتبة ابن كثير، دار ابن حزم، ط٢، ١٤٢٧هـــ - ٢٠٠٦م.

/ á ÇÍÌÈ Ò#ŸŸr ßí$ أي بنعت له حين ضرب برجله الأرض عينان، فشرب من إحدهما، واغتسل من الأخرى[١].

ولهذا روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه- أن رسول الله r قال: "بينا أيوب يغتسل عرياناً خرَّ عليه رِجْل جراد من ذهب فجعل يحثي في ثوبه فناداه ربه يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك[٢].

١٠/من منن الله تعالى على أيوب –عليه السلام– أنه وهب له أهله ومثلهم معهم رحمة منه تبارك وتعالى، وذكرى لأولي الألباب الذين يصبرون ويستقبلون ما منّ الله بالرضا والطمأنينة[٣]

8Ÿ‰‹Î õèr ÇÍÌÈ É»7ØF$'íT 3•ØÉr $ZÏ Ø‘ NGèB NG¥Ïr ¼Ø#d&¥Ø $Y5drr â

.[٤]á ÇÍÍÈ Ò#r&¥ØRÎ ‰5èØNèÏ #Î$ ¹ ØR‰`r $RÎ ÕÎ Y‰Ï ¥r ¾ïÎ>ÎÕÎ$ $ZØÉ

(ضغثاً): قبضة من قضبان أو حزمة من شماريخ[٥].

فقد حلف أيوب – عليه السلام – في حال غضبه أن يضرب حبيباً له عدداً معيناً، وقد أمره الله عز وجل أن يبر بيمينه فيضرب من حلف على ضربه بهذه القبضة مكافأة له على صبره وإحسانه؛ لأنه لو ضربه بسوط أو نحوه لآلم ذلك الضارب والمضروب ففرج الله كربته[٦]، قال سبحانه: ¥r ÇÍÈ %[`•Ø¼Ø@èØt ©$È6f `Br â

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري، (٥٨٩/١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح أحاديث الأنبياء برقم (٢١)، وفي كتاب التوحيد (٣٥) رقم ٣، وانظر تحفة الأشراف (٢٠٣،١٣٢)، وهو في صحيح البخاري بالأرقام التالية (٧٤٩٣،٣٣٩١) تحقيق مصطفى ديب البغاء وترقيمه .

(٣) قصص القرآن الكريم، لفضل حسن عباس ٦٧٣.

(٤) سورة ص: ٤٣ – ٤٤.

(٥) رياض البيان لمفردات القرآن، ٣١٨.

(٦) قصص الأنبياء القصص الحق ١٩٧.

æó« èæaï ª $Ø@è_ ¾ ¾ìÞ¾ àî»/ ©$bî ÿçç¿ m qßù «$'?ã @©qGƒ `Br Ü ÅFtr

%¾ çìÈ #Ÿ¾%[1].

١١/عبودية الحمد والشكر والذكر لله تعالى، فأيوب عليه السلام لم يقنط ولم ييأس من رحمة الله، ولم يتململ ولم يتضجر على ما نزل به، بل صبر على حكم الله تعالى وتوكل عليه فلم ينقطع قلبه ولسانه عن ذكره تعالى وعن عبادته وشكره والثناء عليه في الضراء كما في السراء.

١٢/أن في قصة أيوب – عليه السلام – مواطن عِظام للاتعاظ والاعتبار، ولذا يقول تعالى: á ûï‰î»èÜ 3 •ò2 Ïr â[2] .

قال ابن جرير – رحمه الله –: وتذكرة للعابدين ربهم، فعلنا ذلك به ليعتبروا به، ويعلموا أن الله قد يبتلي أولياءه، ومن أحب من عباده في الدنيا بضروب من البلاء في نفسه وأهله وماله من غير هوان به عليه، ولكن اختباراً منه له ليبلغ بصبره عليه واحتسابه إياه، وحسن يقينه منزلته التي أعدها له تبارك وتعالى من الكرامة عنده[3].

فاستحق تلك الرحمة المباركة العظيمة؛ لأنه من عباد الله الصابرين[4].

١٣/أن ما روي من مقدار ما لحقه من الضر في نفسه حتى وصل إلى حد النفرة منه، وأن الناس جميعاً تحاموه وطردوه من مقامه إلى ظاهر المدينة في موضع الكناسة، ولم يكن يتصل به إلا امرأته التي تذهب إليه بالزاد والقوت، فكل ذلك من الإسرائيليات التي يجب الاعتقاد بكذبها؛ لأنه ليس من سند صحيح يؤيدها؛ ولأن من شروط النبوة ألا يكون في النبي من الأمراض والأسقام ما ينفر الناس منه؛ ولأنه متى كان كذلك لا يستطيع الاتصال بهم وتبليغ الشرائع والأحكام إليهم[5].

---

(١) سورة الطلاق: ٢ – ٣.

(٢) سورة الأنبياء: ٨٤.

(٣) تفسير ابن جرير (٩/٧٠) .

(٤) الأمثال في القرآن الكريم، لسميح عاطف الزين، بتصرف ٦٤١.

(٥) تفسير المراغي (١٧/٦١) ط الخامسة، ١٣٩٤هـ مطبقة مصطفى البابي الحلبي مصر .

وقال القاسمي – رحمه الله - في تفسيره عند ذكر بلاء أيوب – عليه السلام – "وقد روى المفسرون ههنا في بلاء أيوب روايات مختلفات بأسانيد واهيات، لا يقام لها عند أئمة الأثر وزن ولا تعار من الثقة أدنى نظر، نعم يوجد في التوراة سفر (لأيوب) فيه من شرح ضره بفقد كل مقتنياته ومواشيه وآل بيته، وبنزول مرض شديد به، عدم معه الراحة ولذة الحياة غرائب إلا أنها مما لا يوثق بها جميعها؛ لما داخلها من المزيج وتوسع بها في الدخيل، حتى اختلط الحابل بالنابل، وإن كان يؤخذ من مجموعها بلاء فادح ومرض مدهش، ولو علم الله خيراً في أكثر مما أجمله في تنزيله الحكيم لتفضل علينا بتفضيله، ولذا يوقف عند إجماله فيما أجمل وتفصيله فيما فصل"[1].

(١) محاسن التأويل (٤٢٩٨/١١) ط عيسى البابي الحلبي ١٣٧٩هـ .

عبودية يونس – عليه السلام –

يونس – عليه السلام – نبي من أنبياء الله – عليهم الصلاة والسلام – قال عز من قائل: OšÏù°•ó) #<î $ZŽømr&r ¾íï‰è/ .`B `¿hî Z9$# 8y qè%4<î $ZømŕB $J. 7 øî $ZømŕB $Rî * â: $Y•?#är `»KøïSr brãdr § ÇqãÏr >q•&r Ó¤ŠÏär Å$6ÕÏF$# >qàèƒr ,»s ÕÎr ÏŠÏ»JÕÎr .(١)á Ç¨ìÈ #Yqç– Š¼ã#Š

نسبه: هو يونس بن متى، ودليل ذلك ما روى البخاري و مسلم عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – عن رسول الله r قال: "لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى " (٢).

وقد بعثه إلى أهل نينوى من الموصل؛ حتى لا يكون لهم حجة على خالقهم كمثل أهل الأرض كلهم، فقد بعث فيهم نبياً يحمل إليهم رسالة التوحيد ويدلهم على طريق الإيمان الصحيح.

جاء نبي الله يونس – عليه السلام – يدل بني قومه بحجة ملؤها الحكمة والبيان، ويدفع بيمينه قوامها الدليل والبرهان، جاء يدعوهم إلى التوحيد ويحذرهم من الشرك الذي إن اتبعوه قادهم إلى الفوز والفلاح(٣).

كذبوه واستمروا على كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمره خرج من بين أظهرهم، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث(٤)، ولعلنا نطرح تساؤلاً هل كانت دعوة يونس – عليه السلام – فيهم بدون حجة وبرهان على ما جاء به ؟ حتى يحصل منهم هذا التعنت والمكابرة؟! كلا فقد أراد يونس عليه السلام أن يجادلهم بالحق، وأن يبين لهم طريق الصواب، ولكنه لم يظفر منهم إلا بتعنت الجاهلين، فقد أنكروا عليه دعوته، وراحوا يؤلبون

---

(١) سورة النساء: ١٦٣.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم كما في الجمع بين الصحيحين للحميدي برقم (٣٠٣) (١/١٢٨)، وهو في صحيح البخاري برقم (٣٣٩٥،٣٤١٣،٥٤٢١) و(٤/١٨٦، ١٩٣)، وهو في مسلم برقم (٦٢٣٦) .

(٣) قصص الأنبياء في القرآن، لسميح الزين، ٦٠٣ – ٦٠٤.

(٤) قصص الأنبياء، لابن كثير ١٩٢.

القريب والبعيد حتى يحقروه ويذموه، فهاهم يتعمدون النيل منه بالتهكم والسخرية ويتقصدون أذيته بالاحتقار والإذلال[١].

وأرادوا أن يبينوا لقومهم أن يونس – عليه السلام – سمعوا منه قولاً لم يألفوه، وحديثا عن إله لم يعرفوه، وكبر عليهم أن يروا واحداً كان منهم فخرج عليهم، ورجلاً من عامتهم ينصب نفسه رسولاً إليهم وهادياً لهم[٢].

فعند ما بلَّغ يونس – عليه السلام – دعوته ورفضها قومه؛ أشد الرفض بعناد وتعنت وإصرار على الكفر، غضب يونس – عليه السلام - من قومه لأنهم كذبوه ورفضوا قبول الحق وغضب أيضاً القوم؛ لأنه أنذرهم عذاب الله وأنه قادم لا محالة[٣].

ولهذا قال تعالى: â r Ê è Z9$#Ì dÊÊ = ó» Ô ù $ Ø ã ‘ ¨ ø R ` Cb& £ à

Ê ¾ Ç9 $Z f G $ Ç È š ú ü Ï Ê » 9$ ` B M Z à2 ’ Ê š • Y » s 6 M R& W Ê m» 9 Ê W b& M» J 9$

á Ç È û Ï B 9$ Ó Ç š • ¹ < . r 9$ ` B Y Ur[٤].

لما رأى يونس – عليه السلام – أمارات العذاب تظهر في وجوههم وأخذت مقدمات العذاب تتجه نحوهم، فظن – عليه السلام – أنه قد أدى ما عليه من أعباء الرسالة ما دام قد أوضح لقومه الطريق، وعرفهم صراط الله المستقيم، وحذرهم من أسباب سخط الله وغضبه، وأن الله لن يضيق عليه إن هاجر من أرض قومه، وأن له أن يذهب حيث يشاء فاتجه نحو البحر[٥]، فوجد سفينة فركب فيها وكانت هذه السفينة ممتلئة، فلجت بهم واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون قالوا: فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه، فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس فلم يسمحوا به فأعادوها ثانية، فوقعت عليه أيضاً، فشمر ليلقي بنفسه فأبوا عليه ذلك، ثم أعادوا القرعة ثالثة، فوقعت عليه أيضاً لما

---

(١) قصص الأنبياء في القرآن، لسميح عاطف الزين، ٦٠٥.

(٢) قصص القرآن، لمحمد جاد المولى، ١٩٩.

(٣) انظر: قصص القرآن للخالدي، (٤١/٤) .

(٤) سورة الأنبياء: ٨٧ – ٨٨.

(٥) قصص الأنبياء، القصص الحق عبد القادر شيبت الحمد، ٢٠٢.

يريده الله من الأمر العظيم[١] قال تعالى: â r̂bã̃qç§ 9Ü`$#ö3æ™ŵûüÈ Ç̈ÎÌ) ô6/ ,) ̂<' $#ü̧A

.[٢]á Ç̈ÎÈ ỉ̂ã qèdr Ùqtçø$sçJ)9ø$# Ç̈ÎÈ ûü̧m̂ôÒßJø$# `ÏB b%3ù Nd$|¡ ù Ç̈ÎÈ èqßs ô±J̃ø$#

وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقي في البحر، وبعث الله عز وجل حوتاً عظيماً من البحر الأخضر، فالتقمه، وأمره الله تعالى ألا يأكل له لحما ولا يهشم له عظما، فلــيس لــه برزق فأخذه فطاف به البحار كلها.

يتضح مما سبق:

١/ أن نبي الله يونس –عليه السلام- من الرسل، لقوله تعالى: (r̂bã qç§ 9Ü`$#ö3æ™ŵûü).

٢/ أن الله اختاره من بين من كان في السفينة؛ لأجل اختباره وامتحانه، ولعل في هذا عتاباً لطيفاً حميداً من رب مجيد ليونس – عليه السلام – وذلك لأنه عليه السلام اجتهد برأيه ولم ينتظر إلى أن يأتيه النداء من ربه، ولكنه فعل خلاف الأولى، حرصاً منه عليه السلام على الدعوة إلى الله تعالى؛ لأنه لما رأى أن قومه معرضون عنه اتجه وغادرهم لكي يحقق عبودية الله في قوم آخرين ولكن؛ لأنه نبي رسول والله هو الذي يوجهه حيــث يــشاء ولذلك فعل بخروجه قبل التوجيه من الله خلاف الأولى[٣].

٣/ عبودية الرخاء والشدة لقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث :(تعــرف علــى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) [٤] فلما كان يونس – عليه السلام – دائم العبودية لله كــثير الذكر والدعاء والعبادة في حال رخائه كان هذا حصناً حصيناً له بإذنه تعالى في وقــت الشدة، وذلك أنه لما التقمه الحوت كان من عباد الله الصابرين الــذاكرين المــسبحين المهللين المستغفرين، ولهذا قال الله تعالى عنه: â ùqȫ ©R%¼. b% `ÏB ø$#m̂Åûü Ç̈ÎÈ 9=Î]

Î' /ÕŽÏîÏn 4<Î ùÏöqQãbá[٥] أي فلولا أنه سبح الله هنالك، وقال ما قال من التهليل

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ١٩٣ بتصرف يسير .

(٢) سورة الصافات: ١٣٩ – ١٤٢.

(٣) انظر: قصص القرآن، لصلاح الخالدي (٢/٤٥) .

(٤) جزء من حديث ابن عباس الطويل أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧)، وأخرجه الترمــذي بــرقم (٢٥١٦) وقال حديث حسن صحيح .

(٥) سورة الصافات: ١٤٣ – ١٤٤.

والتسبيح والاعتراف لله بالخضوع، والتوبة إليه، والرجوع إليه، للبث هنالك إلى يـــوم القيامة ولبعث من جوف ذلك الحوت، وهذا معنى ما روي عن سعيد بـــن جـــبير – رضي الله عنه-.

وقيل (ûüÅÎη ⌀⌀`Ï) أي المطيعين المصلين الذاكرين لله كثيراً[١].

٤/ عبودية الذكر باللسان، وإن كانت معلماً بارزاً في شخصية يونس – عليه الـــسلام – وذلك أنه أخذ يردد عبـــارة šú üÏî»¤ø9$$`Ï ÅMZà2 'ÎŽ•Y»s⌀Ÿ MR&wΗ)m»9ÎwâáÉ[٢] فأقر لله تعالى بكمال الألوهية، ونزهه عن كل نقص وعيب، وآفه، واعترف بظلم نفسه وجنايته [٣].

(ÏM»Jèà9$'Î3Š$Yù) قال ابن عباس – رضي الله عنهما – ظلمة الليل وظلمة البحـــر وظلمة بطن الحوت[٤].

٥/ أنه بهذا الدعاء فرَّج الله همه، وأزال كربته، واستجاب له دعاءه، ونجاه من الغم الـــذي حصل له في بطن الحوت والغم بالخطيئة والذنب.

٦/ في قوله تعالى (... r.‹ •šÇ¢GÓÂ⌀ÏsÏZû⌀⌀ïüû) دليل صريح بأن كل من ألمَّ بخطيئة أو ذنب ثم استغفر الله وأناب إليه، فوجد الله سبحانه غفوراً رحيما قـــال تعـــالى: âr)Î:الى تعـــال قـــال غفوراً رحيما فوجد الله سبحانه وأناب إليه، ذنب ثم استغفر

#Œ ’ÍÉ!$oqãŠ Ï‰‹Åé=ƒ‰% ’ÎûÓÍ_ã “Ï$6Ïã 7'™ Î ’9 ⌀[٥]á ÇÏÈ šc rßÔ⌀ÏNG=è9.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ١٩٤، تفسير ابن كثير (٤/٢٨ – ٢٩) .

(٢) سورة الأنبياء: ٨٧.

(٣) تفسير السعدي: ٥٢٩.

(٤) تفسير ابن كثير (٣/٢٥٦) .

(٥) سورة البقرة: ١٨٦.

٧/ أن الله تعالى قال عن يونس عليه السلام: $ZF;R&r ÇíÎÈ ÒŠÉ™ qèr ät•è¢ßf ç»RÕ6Zù * â

tNG»Yè¢Kù {qZB$«ù ÇíÎÈ šc rßfÌf r& A# ßä þ•{B 4<î ç»Yù™Ör ÇíÎÈ &üÜøf `Bz• f © înøã

. á[1]ÇíÎÈ &üïm 4<î

وهذه من المنن والنعم التي أنعم الله بها على عبده يونس – عليه السلام – لما استغفر وأناب له تعالى.

والمنة الأولى: نعمة إخراجه من بطن الحوت، والذي يظهر من خلال سياق الآية أنه كان في مكان خالي لا شجر فيه، ولا نبات وكان أيضاً عليلاً ضعيف البدن، مما ناله من التقام الحوت.

المنة الثانية: (&üÜøf `Bz• f © înøã $ZF;R&r) واليقطين الدباء أو القرع. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه.... طُرح بالعراء وأنبتت عليه اليقطينة وهيأ الله له أورية – أنثى الوعل – وحشية تأكل من خشاش الأرض قال: فتفسح عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت[2].

قال بعض العلماء: وفي إنبات القرع عليه حكم جمة منها:

أن ورقه في غاية النعومة، وهو كثير وظليل، ولا يقربه ذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره، نيئاً ومطبوخا، وبقشره وببذره أيضاً، وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ أيضاً[3].

المنة الثالثة: كثرة عدد من أرسل إليهم يونس عليه السلام (r& A# ßä þ•{B 4<î ç»Yù™Ör

šc rßfÌf).

---

(١) سورة الصافات: ١٤٥ – ١٤٨.

(٢) ذكره ابن كثير في التفسير (٣٩/٢) وعزاه لابن أبي حاتم، وذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه لابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا في الفرح وابن مردويه عن أنس، ينظر الدر (٦٦٨/٥) .

(٣) قصص الأنبياء: ١٩٦.

>#‹ ã Nlåãã $Zÿø± . ¢qæB#ä $Ð9 § ÐqãPö‰ žvÎ $KÐJƒÎ $gèŸZù ÐMZB#ä Þƒè‰ ÐMR‰. Ÿwöù â

.[1]á ÇíÈ ßüm 4‹Î Là»Yè¢Br $‹R‰9$Ó4Š s ßS'Î Ä “Ï, ßS

وقد اختلف المفسرون: هل ينفعهم هذا الإيمان في الدار الآخرة، فينقذهم من العذاب الأخروي، كما أنقذهم من العذاب الدنيوي ؟ على قولين:

الأظهر من السياق: نعم – والله أعلم – كما قال تعالى: "لما آمنو"

وقال تعالى: "ßüm 4‹Î NG»Yè¢Kù ¢qæB$«ù Ç¡ÈÈ šc rß‚ƒÎ’ƒ ¤‹ Ä¤ ßÞ Þ•ÐB 4‹Î Þ»Yè™ö&r"

وهذا المتاع إلى حين لا ينفي أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروي والله أعلم[2].

قال ابن مسعود وسعيد بن جبير رضي الله عنهما وقتادة ومجاهد -رحمهما الله– وغير واحد من السلف والخلف، "فلما خرج من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم رجعوا إلى الله عز وجل وتضرعوا وتمسكنوا لديه وبكى الرجال، والنساء، والبنون، والبنات، والأمهات وجأرت الأنعام والدواب والمواشي، فرغت الإبل وفصلانها، وخارت البقر، وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعة عظيمة هائلة، فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم سببه، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم[3].

قلت: لو لم يكن ليونس عليه السلام مزية على غيره إلا هذه الميزة، أي نعمة إيمان قومه كلهم وفرحه عليه السلام بهذا الأمر الذي كان يتمناه في السابق؛ لكفاه بهذا فخراً وتميزاً وعزاً.

٨/ الدعاء من أكبر الدلائل على قوة الإيمان؛ وذلك أن المؤمن يعرف ربه – عز وجل – ويلجأ إليه في جميع أحواله في العسر واليسر، في السعة والضيق، في الفرج والكرب، أما

---

(١) سورة يونس: ٩٨.

(٢) قصص الأنبياء، ١٩٣.

(٣) المصدر السابق: ١٩٢.

أولئكم الذين يعرفون ربهم في بعض الحالات دون البعض الآخر فقد ذمهم القرآن الكريم[١] حيث قال: b'JÔ$ïöz ¼ç/$ ¹ & bîù Ø öm 4?ã @$%ç÷ ` B Ä $Z9$ `Ïr â

ã#Žãqèd 7Ÿ°E o•ÅÝ$ $<‰9$ŽÅz ¼îĝô_r 4?ã =)R$pZÑçF/$ ¹ & bîr ¼îî

.[٢]á ÇÈ ßî7ß$

٩/ من عظيم كرامة الله لنبيه يونس – عليه السلام – حينما كان في بطن الحوت كما جاء في الحديث "أوحى الله إلى الحوت أن خذه، ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس – عليه السلام - حِسّاً، فقال في نفسه: ما هذا ؟ فأوحى الله إليه – وهو في بطن الحوت – أن هذا تسبيح دواب البحر قال: فسبح وهو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا، إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة! قال: ذلك عبدي يونس – عليه السلام - عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر قال: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح، قال: نعم قال: فشفعوا له عند ذلك، فأمرت الحوت فقذفه في الساحل[٣] كما قال تعالى: (ÒŠÉ™ qèr)[٤].

فمن خلال هذا النص: يتبين أن الله أكرم جسده من أن يؤكل أو يكسر أو يتعرض لأذى وهذه منة عظيمة لنبيه يونس – عليه السلام - .

كذلك يتضح من هذا النص أن الملائكة درجاتهم عند الله تعالى عالية وشفاعتهم عند الله مستجابة، إذ رضي المولى عز وجل ذلك، وكانت شفاعتهم صواباً كما قال:

$Y#q ¹ A$%r ß»Hq$$a bÏ& ôB žv)šc qß=3Gƒ žv $y ¹ è3Í»=J¹ ßr¹9$qàƒ Pöƒ â

.[٥]á ÇÌÈ

---

(١) التائبون في القرآن قصص وعبر، أ. د. زكي أبو السريع، ٢٤٣، ٢٤٤.

(٢) سورة الحج: ١١.

(٣) أخرجه ابن جريج في التفسير (٥١٨/١٨) وفيه راو لم يسم، وأخرجه في التاريخ (٤٦١/١) بالسند السابق نفسه وذكر السيوطي في الدر المنثور(٦٦٨/٥) وعزاه لابن اسحاق، والبزاز وابن جرير من حديث أبي هريرة .

(٤) سورة الصافات: ١٤٥.

(٥) سورة النبأ: ٣٨.

فقد شفعوا ليونس – عليه السلام – في أن يرفع عنه ربه البلاء والكرب فاستجاب لهم ربهم وحقق مطالبهم[١].

ومن ذلك: أن الله تبارك وتعالى قال لنبيه محمداً r É ï m $ Á . ` a ? w r 7 î h ' è ã t ç æ ö $ u â

P q ã B q è r ä • è ø ‹ î z ¾ ï S ` B p J è ¼ ç . ' ‰ ? b & w ö Ç Í È P q ã B q è r 3 Š $ R ø) ï N q ç $

.[٢]á Ç Í È

فالله يطلب من نبيه محمد r أن يصبر لحكم ربه، فيصبر على تكاليف الدعوة ويصبر على ما يواجهه من أذى قومه، وينهاه أن يفعل كما فعل يونس عليه السلام صاحب الحوت حيث غادر قومه بدون إذن وتوجيه منه سبحانه، وليس معنى هذا نفي الصبر عن يونس - عليه السلام - فهو رسول صابر لكن الله يريد من رسوله محمد r أن يكون أكثر صبراً من يونس - عليه السلام - الصابر كيف وأنه من أولي العزم من الرسل ؟ بل أفضل أولي العزم من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[٣].

ومن تكريم نبينا محمد r وتواضعه نهى أن يفضله أحد على يونس بن متى عليه السلام.

روى البخاري عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – عن النبي r قال: (ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى)[٤].

ففي هذا الحديث بيَّن حبيبنا محمد r مكانة يونس – عليه السلام – وأنه لا ينبغي أن ينتقص بوجه من الوجوه، ونهى أن يعتبر أحد نفسه أفضل وخير من يونس عليه السلام.

---

(٢) التائبون في القرآن: ٢٤٤ – ٢٤٥.

(٣) القلم: ٤٨ – ٤٩.

(٣) قصص الأنبياء، لصلاح الخالدي (٥٨/٤) . بتصرف يسير.

(٤) تقدم تخريجه صفحة: ٤٥٠.

المبحث التاسع

عبودية إلياس، وذي الكفل، والأسباط، ويحيى - عليهم الصلاة والسلام -

عبودية إلياس – عليه السلام –

إلياس – عليه السلام – نبي من أنبياء الله من ذرية إبراهيم – عليه السلام -

قال تعالى: @6% `Ï $Yƒ‰d $mqÞr $Yƒ‰d ˆxà2 >qàèƒr ,»sðÎ ¥ÆÏ $Zõdrr â :

ûüÏÅés3ø‹ “ Ìøù 7Ï°‹.r brãdr Ó›qãr #ÏqãrŠU qƒ&r `»JøÏr Š¼ã#Š ¾ÍnÉƒÍê `Ïr

§ÞqãrÌ¡Šø‹ Ï@‹è»JðÎr ÇÍÈ šú üÅÎ¡ÓÁ9$`Ï @a ¨ $‹Ïr Ó¤ŠÏr Ó•tr $ƒÌ.–r ÇÍÈ

.(١) á ÇÍÈ ûüÏ=èø‹’?ã $Y¨ÏÒù yxà2 r $ÛÞqãr

وقد تحدث القرآن عند دعوة إلياس – عليه السلام – قومه إلى عبودية الله. قال تعالى: âÎr

šc râ‹?r Wè/ bqãß?& ÇÍÈ bqàG? Ÿw& ¥ÍnÏÞq)Ï A$% Ïf Ç̈ÈÍÈ šú üÎ™ø‹ø3ø‹`Ï9 ¨ $‹Ïf

Ç̈È brÞØés3ø9 ÏÅÎù qqÞ‹3ù Ç̈ÈÍÈ šú üÏ?Ì$ÏÅÎ$/#ä ÞÞ‘r ÞÏ/‘ Ï$Ç̈ÍÈ ûüÍ»ƒø‹`¡ôn&

$RÎ Ç̈ÍÈ ûüÅ$ƒÆÎ #?ã Ñ»=™ Ç̈ÈÍÈ ûüÍ•ÅÑ¥$’Î Ïnøã $Yø•?r Ç̈ÑÈ šú üÅ=Ø‹ø3ø‹‹ Ï$Š$7Ïã ÞÏ

.(٢) á Ç̈ÍÈ ûüÏÏ‰s3ø‹ø$RÏŠ$7Ïã ôÏ ¼çRÎ Ç̈ÍÈ ûüÏÅés3ø‹ “ Ìøù š• Ï°‹.

في هذه الآيات أخبر تعالى عن نبوة إلياس – عليه السلام - وأنه من الرسل، وأنـــه دعى قومه إلى القضية العظمى الأصل الأصيل الذي لا يتبدل ولا يتغير، ألا وهو دعوة قومه إلى عبودية الله "bqàG? Ÿw& ¥ÍnÏÞq)Ï A$% Ïf" فقوله (ألا) للحث والأمر بالتقوى"(٣).

كما نهاهم عن اتخاذ أي معبود – سوى الله – وجعله يعبد من دون الله ولهذا قال: " ûüÏ»ƒø‹`¡ôn& šc râ‹?r Wè/ bqãß?& " فالاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ والتسفيه.

وقوله " Wè/ bqãß?& " الدعاء هنا كناية عن العبادة؛ لأن من دعا شيئاً ورجا منه جلب النفع، ودفع الضر، فقد عبده؛ لأن الدعاء من لوازم العبادة، أو مجاز مرسل بـــإطلاق السبب وهو الدعاء، وإرادة المسبب وهو العبادة(٤).

---

(١) سورة الأنعام: ٨٤ – ٨٦.

(٢) سورة الصافات: ١٢٣ – ١٣٢.

(٣) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم (٣/٣٨٢) .

(٤) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم (٣/٣٨٢ – ٣٨٣) .

وقوله (بعلاً) اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها بعلبك - غـــربي دمـــشق- وقيل: (بعلاً) يعني: ربا وهي لغة أهل اليمن[١].

وقوله " ûüÉÎ»ƒøŠ` ¡ ôn« " أوثرت هذه الكناية عن التصريح باسم الجلالة (الله) لبيان قبح دعاء بني إسرائيل – قوم إلياس – غير الله تعالى، وتسفيه لأحلامهم، وفساد عقـــولهم لأنهم يدعون جماداً أصم مصنوعاً لا صانعاً، ويعرضون عن الذي خلقهم فأحسن صـــورهم ورزقهم من الطيبات، ولا يفعل ذلك من كان عنده مثقال ذرة من عقل أو تمييز، وشتان بين خلق الخالق للشيء من العدم، وصنعة غيره التي هي صنعة تأليف وتشكيل لمواد مخلوقة لله عز وجل من قبل[٢].

ثم بين لهم من المستحق فعلاً لاتخـــاذه معبـــوداً وهـــو الله " š ßâí$/#ä þ‘r ðâ/‘ $ úüÏŸÒ¨Ψ9 " ولكن قوم إلياس – عليه السلام – كذبوه وكفروا بما جاء به فـــأخبر تعـــالى عنهم " brçÓó¡ßϑø9 ßâîùqçGø3ù " أي يوم القيامة في العذاب ولم يذكر القرآن لقومـــه عقوبة في الدنيا[٣].

واستثنى من دخول العذاب وحلوله " šú üÅ¡ø‹ßϑø9$ $Š$7ãr ßv) " والمستثنى منـــه هؤلاء العصاة الكافرين فمن حقق العبودية بأن آمن به واتقاه فقد خرج من هذا العـــذاب، ثم جاء الثناء والمدح منه تعالى على رسوله إلياس - عليه الصلاة والسلام -.

" ìÏ‰ôgu š• ï°< . $RÎ) ÇÚöF{$ûüÅ$ƒ ÆÎ) #?ã Ν»=™ ÇÚöF{$Ò ûüï/ÅÁ¨Ψ$’Î ïøã $Yø•?r â

á ÇÚöF{$Ò ûüÏŠ$ßϑø9$$RŠ$7ãr ôÏ ¼çRÎ) ÇÚöF{$Ò ûüÏÅÁ¨ßϑø9$ [٤].

حيث أبقى الله في من جاء بعده ذكراً حسناً وثناءً طيبا لإلياس – عليه الـــسلام – وجاءته التحية من الله ومن عباده المؤمنين، تكريماً وتشريفاً له، وأنه عليه السلام بلغ درجـــة الإحسان في العبودية لله. كما حصل لغيره من بقية الأنبياء، وختم الحديث عنـــه بإثبـــات صفة العبودية والإيمان له عليه الصلاة والسلام " ûüÏŠ$ßϑø9$$RŠ$7ãr ôÏ ¼çRÎ) " .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٢٧) .

(٢) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم (٣/٣٨٤) بتصرف يسير.

(٣) تفسير السعدي: ٧٠٧.

(٤) سورة الصافات: ١٢٩ – ١٣٢.

عبودية ذي الكفل – عليه السلام –

ذو الكفل – عليه السلام – نبي من أنبياء الله تعالى، ورد ذكره في سورة الأنبياء قال تعالى: â ¨@Šè»JóÏ)r ƒÍ‘Šôlr § ä@ø2Å%$#Œr (@@à2 `ÏiB ûïÎÉ9»¢Á9$# ÇÌÎÈ Š&r {ùè»Ÿ NÛÎ † ' qÏHZ$ Ï NÛ`ÏiB ÆÉ9»¢Á9$#ŠÏ» ÇÑÏÈ á[1].

ففي هذه الآية أثبت الله نبوة إدريس وذي الكفل – عليهما السلام - مع سائر الأنبياء المذكورين – عليهم السلام - وهما من أنبياء بني إسرائيل، وأخبر عنهم أنهم اتصفوا بصفات عظيمة حيث قال: " @@à2 `ÏiB ûïÎÉ9»¢Á9$# "، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر على المعصية، والصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يستحق العبد اسم الصبر التام حتى يوفي هذه الثلاثة حقها، فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد وصفهم الله بالصبر، فدل على أنهم وفوها حقها وقاموا بها كما ينبغي.

ووصفهم أيضاً بالصلاح وهو يشمل صلاح القلوب بمعرفة الله ومحبته والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان بأن يكون رطباً من ذكر الله وصلاح الجوارح باشتغالها بطاعة الله، وكفها عن المعاصي، فبصبرهم وصلاحهم أدخلهم الله برحمته، وجعلهم مع إخوانهم المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والآجل، ولو لم يكن من ثوابهم إلا أن الله نوَّه بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين لكفى بذلك شرفاً وفضلاً[2].

وقد جمع الله بين إسماعيل وذي الكفل واليسع – عليهم السلام – في سورة ص على سبيل الثناء والمدح قال تعالى: â ö@ä.Œr ¨@Šè»JóÏ)r yìu‹¡ø9$#Œr ä@ø2Å%$#Œr (@@ä.r `ÏiB ‘$u‹÷zF{$# ÇÍÑÈ á[3].

فوصفهم الله بالخيرية فهم أخيار؛ لأنهم مصطفون من بين سائر البشر، مختصون لحمل الأمانة، وتبليغ رسالة ربهم، وهم أخيار في أخلاقهم وسلوكهم ومعاملاتهم، وعباداتهم وصفاتهم، ولم يوصف هؤلاء بالخيرية، إلا لتحقيقهم عبودية ربهم صلوات الله وسلامه عليهم.

---

(١) آية: ٨٥ – ٨٦.

(٢) تفسير السعدي: ٥٢٩.

(٣) سورة ص: ٤٨.

كما ذكر الله نبي الله اليسع مع جملة الأنبياء المذكورين في سورة الأنعام، قال تعالى:

Š¼ãŠ ¾ïÏ¢ïê `Ïr @6‰ `Ï $Y‡‰d $mqÏr $Y‡‰d ˆx à2 >qàè‡r ,»s Ó Ÿ¥ $Z6drr â

é•ïr $‡ì.–r ÇÌÍÈ ûüÏÅé Ï8“ ìµU 7ï° <.r brãdr é›qãr #Ïqãr šU q‡&r `»Jø Ÿr

yx à2 r $Ûqãr §ïqãr ì ¡Šãr ¥<éÏJÓ Ÿr ÇÌÍÈ šú üÅî»é A9$`Ï @a ¨ $<éÏr é¤Šãr

.[1] á ÇÌÍÈ ûüÏ=»èãS’?ã $Y¥ÈÙ ù

فعند ذكره لهؤلاء الأنبياء، ذكر ما امتازوا به من الثناء الجميل، حيث جعلهم يفضلون على سائر الخلق بإحسانهم وصلاحهم وتقواهم.

كما أخبر القرآن عن نبوة الأسباط، ضمن تعداده لبعض الأنبياء قال تعالى: «ï $YB#ä ïêqè â

é¤Šãr é›qã ’Ïré$Br Å$6Ó Ÿ¥ >qàè‡r ,»s Ó Ÿr ¥Šè»ïêr O¿ï°•ï #<Ï Aï Ré$Br $Zãï Aï Ré$Br

.[2] á ÇÌÍÈ bqãéqã ¼ç9 ßãr ÓG¥Ï ‰n& ûï/ äï ÿçw ÓÏ Ï S`Ï šc qšÎ Y9$’Ïré$Br

والأسباط: هم اثنا عشر رجلاً من ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ولد كل رجل منهم أمة من الناس، فسموا أسباطا لا يحصي عددهم ولا يعلم أنسابهم إلا الله[3] يقول تعالى عنهم: â $VBé$Ù$7Ó oŽã ã ÓLY¥$B»Yè‰r â .[4] á

والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل — عليه السلام - وسمو الأسباط من السَّبْط وهو التتابع فهم جماعة متتابعون، وقيل أصله من السَّبَط (بالتحريك) وهو الشجر أي هم في الكثرة بمنزلة الشجر[5].

فأخبر سبحانه في كتابه الكريم عن نبوتهم — الأسباط — وبما أنهم أنبياء يجب الإيمان بهم.

قال ابن كثير — رحمه الله —: أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إلـــيهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلا، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص على أعيـــان

---

(١) سورة الأنعام: ٨٤ — ٨٦.

(٢) سورة البقرة: ١٣٦.

(٣) تفسير ابن جرير (٦٢٠/١) .

(٤) سورة الأعراف: ١٦٠.

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٤١/١) تفسير ابن كثير (٢٤٧/١) .

من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم ولا يكونوا كمن[1] قال الله فيهم: ßÏsçšc qèàfr ¾ÏÎ?Sâr «!$û#/ {qèÿãb& šc r&ßìãr â

brèÿ»3#&Sd 7Í»9réÇÎÈ ¸x‹Î™ 7Ï°Œ û#/ {räÏ, Gƒ b& br&ßìãr «Ù è7Î ègù6 Rr «Ù è7Î

. á[2] $ym

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٢٤٦) .

(٢) سورة النساء ١٥٠ - ١٥١ .

عبودية يحيى – عليه السلام –

يحيى بن زكريا – عليهما السلام -

وقد تحدثت في مبحث سابق عن عبودية زكريا – عليه السلام -ولكن أشير هنا إلى شيء من قصته على سبيل الإخبار والإيجاز.

أخبر القرآن العظيم عن نبوة يحيى – عليه السلام – وذلك في قوله تعالى: â ¨ŝ$Yù tçÛ

#%hr ‹ $`Ï ¾7J£3Î $#ÌÍ|ÁãÈ 4•s ‹Î 8ž¡Å;ã©$b ÉË #•ö Ü9$ ’Î ’}ÁãÓ $% qèr è3Í= J$

’Î•B$ ç9Å6 $ÓÍó=/ 6%r Ö=ã ’ǻ ãqã ƒ 4T É ‘ A$% ÇÌÈ ûüÅ£Í»ÉA 9$`Ï $ŠÎ7r #YqÁmr

Ø=ãÎ 8ž¡Å;ç$R̄ $fÎ•Ÿ2 “»ƒ â : وقال أيـــضاً á ÇÍÈ ã$±„$B @ è¡ƒ ª! $š• ÏÍ‹ . A$% Ö$ã

á ÇÐÈ $Šiw™ @ 6% `Ï ¼ã©@ è¡ù N9 4•tƒ ¼çm3ó™$[1].

لما دعا زكريا – عليه السلام - ربه أن يهب له ذرية طيبة صالحة لكي تكون نبراساً يشع بالإيمان والنبوة، جاءته البشرى من العلي القدير بأن الله سيرزقه بمولود ذكـــر، وأنـــه سيصبح من الأنبياء وله من السمات ما يلي:-

١/ " ‹ $`Ï ¾7J£3Î $#ÌÍ|ÁãÈ ": أي مصدق بعيسى ابن مريم عليه الـــسلام وعلـــى ســـنته ومنهاجه[2].

٢/ " #%hr " أي الكريم على الله – عز وجل – فهو سيد في العلم، والعبـــادة والتقـــوى والصلاح، والحلم، والخُلُق[3].

"#YqÁmr" أي ممتنعاً من جماع النساء قال القاضي عياض في كتابه الشفاء: " اعلـــم أن ثناء الله تعالى على يحيى – عليه السلام - أنه كان حصوراً ليس كما قاله بعضهم إنـــه كان هيوباً أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين، ونقاد العلماء وقالوا: هـــذه

(١) سورة مريم: آية ٧.

(٢) تفسير ابن جرير (٢٥٢/٣) .

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم (٤٧١/١) .

نقيصة وعيب، ولا تليق بالأنبياء - عليهم السلام – وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب أي لا يأتيها كأنه حصر عنها، وقيل: مانعاً نفسه من الشهوات، وقيل: ليست له شهوه في النساء، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى – عليه السلام –، أو بكفاية من الله عز وجل كيحيى – عليه السلام –، ثم هي في حق من قدر عليها وقام بالواجب فيها و لم تشغله عن ربه درجة عليا، وهي درجة نبينا محمد r الذي لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن وقيامه عليهن وإكسابه لهن، وهدايته إياهن، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو وإن كانت من حظوظ دنيا غيره[١] فقال: (حبب إلي من دنياكم) [٢] هذا لفظه.

والمقصود أنه مدح ليحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه كما قال هو وغيره أنه معصوم عن الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك تزويجه بالنساء الحلال، وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم[٣] حيث قال: á þ7hÛ ¤fhê š• R¤©`B 'íé-dE ' â[٤] كأنه قال: ولداً له ذرية ونسل وعقب – والله أعلم - .

٣/ " ûüÅî»Á9$`B $ÛRr " وهذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته[٥] فهو رسول من ربه إلى قومه ينبئهم عنه بأمره ونهيه وحلاله وحرامه، ويبلغهم عنه ما أرسله به إليهم[٦].

---

(١) الشفاء: (٣/ ٣٣٠ – ٣٣١) شرح الشفاء للقاضي الملا عياض القاري، ضبطه عبد الله بن محمد الخليلي دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ

(٢) أخرجه النسائي (٧/٧٤) بسند صحيح وأخرجه أبو عوانه في مسنده (٥/١٥) برقم (٣٢٤٨) من طريق عن عفان بن مسلم عن سلام أبي المنذر عن ثابت عن أنس، وهكذا أخرجه أبو يعلى(٣/٣٧٤) من طريق أبي ياسر عن سلام ..... به .

(٣) تفسير ابن كثير (١/٤٧٢) .

(٤) سورة آل عمران: ٣٨.

(٥) تفسير ابن كثير (١/٤٧٢) .

(٦) تفسير ابن جرير (٣/٢٥٦) .

وقد ذكر الله مزايا أخرى ليحيى – عليه السلام – في سورة مريم قال تعالى: ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [١].

لقد خصه الله بمواهب عظيمة فمنحه حدة الذكاء، وحسن الفهم، وأمره أن يقرأ التوراة ويعمل بما فيها في جد وعزم، وآتاه الله منذ صغره بصيرة قادرة على التفقه في الدين، وتفهم أحكام الشريعة، وآتاه من فيض رحمته نفساً عطوفاً وقلباً حنوناً، وطهره من الرجس والدنس، وجعله تقيا مطيعاً لله، فلم يرتكب في حياته خطيئة، وجعله الله كثير البر والإحسان بوالديه، ولم يكن قاسياً متكبراً بل كان متواضعاً لين الجانب، وله من الله تحية وسلام وأمان أن يمسه ضر أو أذى يوم ولادته، ويوم موته ويوم القيامة حين يبعث حيا ليؤدي الحساب بين يدي ربه[٢].

٤/ ومن مزاياه أيضاً أنه مرضي عند ربه، وهذا استجابة لوالده زكريا – عليه السلام - عند ما طلب من الله الذرية الطيبة قال: ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[٣].

قال ابن كثير - رحمه الله – ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[٤] أي مرضيا عندك وعند خلقك، تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه[٥].

٥/ ومن المزايا أيضاً: أن الله تبارك وتعالى لما ذكره في سورة الأنبياء جمعاً مع الأنبياء ختم الحديث عنهم بقوله ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾[٦].

---

(١) سورة مريم ١٢، ١٥ .

(٢) مع الأنبياء في القرآن، عفيف طباره ٣١٥.

(٣) سورة مريم: ٦.

(٤) سورة مريم: ٦.

(٥) تفسير ابن كثير (١٥١/٣) .

(٦) سورة الأنبياء: ٩٠.

وزكريا وابنه يحيى – عليهما السلام – داخلان في ثناء الله في هذه الآية[1].

عن عبد الله بن حكيم[2] – رضي الله عنه – قال: خطبنا أبو بكر – رضي الله عنه – ثم قال: أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله، وتثنوا عليه بما هو له أهل وتخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الإلحاف بالمسألة فإن الله عز وجل أثنى على زكريا – عليه السلام - وأهل بيته فقال وذكر هذه الآية ﴿ ÏNºö‚Ž|¡S3ïŠc qãè»¡c¢(qR$Ÿ2 NGR)â ﴾[3].

(١) تفسير ابن كثير (٣/٣٥٩) .

(٢) عبد الله بن حكيم بالتصغير الجهني أبو معبد الكوفي مخضرم مات في أمرة الحجاج، التقريب (٣١٤) .

(٣) سورة الأنبياء: ٩٠ . وقد أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كما في تفسير ابن كثير (٥/٣٧٠) ط دار طيبة، الرياض .